

يوسف السباعي

يطلب من مكتبة مصر
٣ كامل صدقي - الفجالة

الإهداء

اليها ...

الملهمة الصغيرة ..

الباسطة ذراعيها بأرض الغفير ..

النابحة على الغرباء .. الماسحة برأسها على قدمى فى شوق وحنين ..

لقد ألهمتنى القصة الأخيرة فى ساعة عز فيها الوحى واستعصى الالهام ..

يوسف السباعى

مقـــدمـة

هذا الكتاب يحتوى على ثلاث مجموعات من القصص القصيرة . كل مجموعة يجمعها رابط ويضمها شبه .

والكتاب مسمى باسم قصته الأولى «ليلة خمر» وهي قصة تروى بلسان نشوان ثمل .. ولشد ما أخشى أن تكون الرواية متقنة فأتهم ظلما بأنى سكير مجرب .. وأنا لم أجرب السكر فى حياتي مرة واحدة .

على أية حال تهمة السكر بسيطة اذا قيست بما سبق أن اتهمت به من أنى حشاش . وكان أول من اتهمني هو المرحوم الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية بعد أن قرأ – أو قرىء عليه – كتابى «نائب عزرائيل» فأبدى لى اعجابه به ثم مال على أذنى وسألنى هامسا : «هل تعاطيت شيئا وأنت تكتبه» .. وأنكرت بالطبع .. فلم يبد عليه الاقتناع . وأغلب الظن أنه قضى بقية عمره وهو واثق تمام الثقة أنى لا أقدم على الكتابة وأنا «فائق» .

وكان آخر من اتهمنى بالتحشيش هو الموسيقار محمد عبد الوهاب بعد أن قرأ لى قصة «حسن أفندى» من كتاب «الشيخ زعرب» والتى تروى بلسان طربوشه .

ولقد كنت أخجل من التهمة الظالمة حتى عرفت أخيرا أنى لست وحدى صاحبها .. وأن خيرا منى – وهو الأستاذ توفيق الحكيم -- قد سبق أن اتهم بها .. اذ بلغه من أحد أصحابه أن واحدا أكد له أن توفيق الحكيم يتعاطى الأفيون – أو المنزول لست أذكر – وأنه عرف عنه ذلك أيام عمله فى النيابة .

وتعجب توفيق الحكيم .. لأنه لا يعرف كيف يتعاطى تلك المخدرات وهو لايدخن ولا يشرب القهوة .

ولقد جرى بيننا حديث طويل فى نادى القصة عن هذا الموضوع .. وتساءل البعض عن أثر الخمر والمخدرات فى انتاج الكتاب .. وكان رأيى أن الكاتب لكى يصل انتاجه الى أتمه يجب أن يكون فى حالة ذهنية طيبة ، وأن

تكون لياقته تامة وجهوده متوفرة .. فالكتابة عمل ليس بالهين ، بل هي مهمة شاقة تحتاج الى أن يوفر لها الكاتب كل جهده وقدرته وأعصابه . وأن فكرة اتخاذ الخمر أو الحشيش أو غيره من المخدرات وسيلة لكي تجلو ذهن الكاتب وتلهمه أفكارا جديدة لاتخطر للانسان اليقظ السليم لا أظنها الا وهما من الأوهام . فان تخاريف الثمل لايمكن أن تكون أفكارا طيبة صالحة للكتابة ..

وأجابني الدكتور طه حسين بأنه لايوافق على قولي لأن أعظم كتاب النثر باللغة الفرنسية في عصرنا - من النساء والرجال - وهي مدام كوليت قد بلغت الثمانين ولم تترك نوعا من المخدرات الا تعاطته ولم تترك موبقة في صباها الا ارتكبتها .

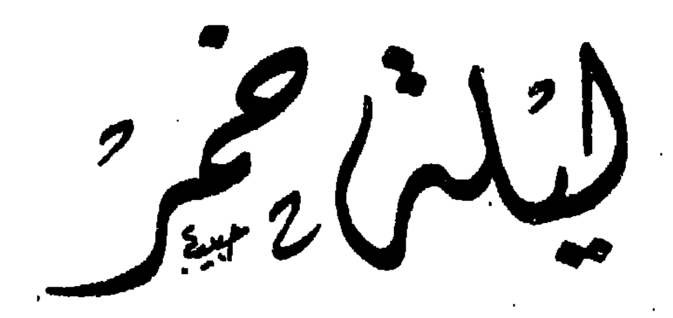
وقد أجابه الأستاذ غراب بأنها ربما كانت تصبح خيرا من هذا لو لم تفعل ما فعلت .. فأجاب الدكتور طه : بأن أحدا لايستطيع أن يجزم وأنه هو نفسه لايرى أبدا صلة بين انتاج الكاتب ونوع طعامه أو شرابه .. وان كان يرى أن الكتاب أو الفنانين أكثر الناس استباحة لهذه الأشياء وأشدهم اقبالا عليها وانغماسا فيها وقد يكون سبب هذا حسهم المرهف ورغبتهم في التحرر والانطلاق من القيود ..

ولقد ذكرني ذلك بقول الأستاذ احسان عبد القدوس - على سبيل المزاح - : انه يجب أن يباح للكاتب أن يتخذ نماذج حية لبطلات قصصه كما يتخذ الرسام والمثال .

على أية حال اني لا أجد من الكتاب المصريين في جيلنا هذا من نستطيع أن نضعهم من حيث الادمان على المخدرات وارتكاب الموبقات في مرتبة الكاتبة الفرنسية الكبيرة ، بل أكاد أجدهم جميعا بعيدين كل البعد عنها .. ويجعلني هذا أؤكد أن غيبوبة المخدر لا ضرورة لها ألبتة في الهام الكاتب . وأن الذهن الصحيح اليقظ أقدر على الانتاج من الذهن الغائب .. ولست أحرم بقولي هذا المكيفات على الكتاب ولكني أفضل أن يباشرونها مباشرة مقتدر ، لا مباشرة مدمن ، وأن يتملكوا المتعة ولا يدعونها تتملكهم .

وأخيرا .. أؤكد لكم مرة أخرى .. أني لم أسكر مرة واحدة رغم قصة «ليلة خمر» ..

يوسف السباعي



انها تنزل وحدها فى الغرفة ..
وهى بنظراتها المستدعية المغرية
لن تدهش كثيرا اذا أنا تسللت
اليها . فأنا أفهم نظرات النساء
جيدا .. أفهمها بالضبط عندما
تقول لنا «تعال» .

هذا نصب .. هذا احتيال .

أنا أعرفهم جيدا .. أعرفهم تماما .. هؤلاء المخادعين المغررين .. وأعرف أساليبهم الشيطانية للضحك على أمثالى من النزلاء الطيبين .

أجل .. أجل .. هؤلاء السفلة من أصحاب الفنادق لابد أن يخدعوك فى شيء .. ان لم يكن فى أجر المبيت ففى أجر الطعام .. وان لم يكن فى أجر الطعام ففى كميته .. وان لم يكن فى كميته ففى نوعه .. لابد أن يجدوا شيئا يغررون بك فيه .

ولقد حاولت جهدى أن أكون حريصا .. وأن أحفظ تسعيرة الحكومة .. وأراجع كل حساب ، وأراقب وأحصى كل شيء .. وظننت أنى بذلك استطعت أن أحصن نفسي ضد ألاعيبهم وأن أقيها شر خداعهم واحتيالهم .

ولكن شيئا واحدا غاب عن ذهنى .. اذ لم يحضر ببالى قط أنه يدخل ضمن أساليبهم المخادعة .. وهو أن أعد السلم .. وأحفظ عدد درجاته .

أجل .. لم يطف بذهنى أنهم سيخدعوننى فى عدد درجات السلم حتى أعدها عندما صعدت فى الصباح الى حجرتى فى الطابق الثانى .. لقد كان السلم قصيرا ، لايمكن أن يزيد بحال عن عشرين درجة .. قفزتهم فى ثوان .. أما الآن .. فانى لا أجد له نهاية .. حتى لكأنه لا يفضى الى الطابق الثانى بفندق «البوريفاج» بل يفضى الى أبواب السماء .

عجبا لهؤلاء المخادعين .. حتى السلم يغالطون فيه ؟ .. يحاسبون فى الصباح على عدد ، فاذا ما أقبل المساء وانتصف الليل .. وتعذرت المراقبة .. واستحالت المحاسبة .. يزيدونه علينا أضعاف أضعاف .

لا .. لا .. هذا امر لا يطاق .. لا بد أن أبلغ البوليس فى الصباح .

ولكن ما حكمتم فى ذلك ؟ مايجنونه من خداعهم هذا ؟ اتراهم ينوون أن يحاسبونا على عدد الدرجات الزائدة ؟ من يدرى ! ليس ذلك على سفالتهم ببعيد .

ولكن هذا جنون .. هذا غير معقول .. لن ادفع لهم بحال .. بل لا أظن حمقهم بلغ هذا الحد .

آه .. عرفت .. أجل .. عرفت مكرهم السىء واحتيالهم الردىء .. لقد أطالوا السلم حتى ييأس الصاعد من بلوغ حجرته ، فيعود من حيث أتى .. ويترك الحجرة خالية .. فيستطيعون ايجارها لشخص آخر .

ولكن أين هذا الآخر الذى يستطيع الصعود اليها ؟ اذا كنت أنا قد قضيت هذة المدة الطويلة دون أن أستطيع أن أبلغ بعضه .. لا بد أنهم سينزلونه بالبراشوت .

أجل . هذه هى الطريقة الوحيدة .. يا للرعاع السفلة .. يؤجرون الحجرة مرتين .. مرة من الأرض ، ومرة من السماء .. يقبضون الثمن مضاعفا .. ولكنى لن أمكنهم من غرضهم .. لا بد أن أصعد .. وأصعد .. مهما طال السلم .. حتى أصل الى الحجرة .. وأكشف خداعهم ونصبهم .

ولكن مابالى لا أصعد .. أنى أحس بعلو الدرجات ، وتأرجح فى السلم والدرجات .. أم ترى التأرجح فى رأسى والثقل فى قدمى !

جائز .. جائزجدا .. فهذا الكأس الأخيرالذى تناولته لم يكن له داع .. سوى فروغية العين .. لقد كانت السبعة كؤوس الأولى كافية جدا .

ولكن اياكم تظنون أنى ثمل .. انى فى تمام الوعى وكمال الادراك .. والله العظيم .. وحق السماء .. السماء التى سينزل منها هؤلاء السفلة الذين سيحتلون حجرتى بالبراشوت .. أنا لست سكران .. أنا فقط .. مبسوط .. بل حتى هذا الانبساط أوشك أن يضيعه هذا السلم اللعين .

هيا .. لنصعد .. لا داعى لاضاعة هذا الوقت .. هيا قبل أن يحتلها اللعين الهابط من فوق .

لنصعد .. درجة .. درجة .

وبعد .. ما آخرة هذه الدرجات .. انى أكاد أسقط اعياء .. لقد كلت قدماى .. الكلاب .. أولاد الكلاب .. والله لأرينهم عاقبة خداعهم فى الصباح .

الصباح ؟ !! ولكن من يدرينى أنهم سيبقونها كذلك حتى الصباح .. أى غبى انا .. انهم لاشك سيعيدونها الى ما كانت عليه .. وسيقسمون أغلظ الأيمان أن السلم لم يتغير .. بل وربما بلغت بهم الوقاحة الى حد اتهامى أنى كنت سكران .

أفضل شىء .. أن أعد السلم درجة درجة .. وأعرف عدده بالضبط حتى أقطع عليهم كل سبيل للانكار .

هيا ..لنبدأ من جديد ..لأنزل ما صعدت .. ثم أصعد من جديد مع العد .

هذه هى الدرجة الأولى .. واحد .. اتين .. تلاته .. أربعه .. خمسة .. ستة .. سبعه .. سبعه !!

سبعة ؟ !! سبعة ماذا ؟! سبعة قروش .. سبع بنات .. ما هذا الذى أعده ؟ ضلة لى .. لقد نسيت تماما ماذا أعد .. سبع كؤوس .. أجل .. لقد تذكرت .. سبعة كؤوس .. ثمانية .. فقط .. هذا هو كل ما شربت .. والكأس الثامنة هى السبب .. لعنة الله عليها .. ما كان يجب أن أشربها .. ولكنها -

كما قلت - فروغية عين .. هى التى أوصلتنى الى حالة السكر هذه .. أما قبلها فقد كنت سليما معافى .. انى أنكر حالتى بعد السابعة .. كنت فى تمام الوعى .. وجلست أقص على الجرسون نكتة وأنا أحتسى الثامنة .. قلت له ان رجلا جلس مع ابنه على البار وأخذ الاثنان يحتسيان الكأس تلو الكأس ، وبدا للأب أن ينصح ابنه فقال له :

- اشرب كما تشاء ، ولكن اياك أن تصل الى حد السكر .

- وكيف أعرف أنى وصلت الى هذا الحد ؟

- عندما ترى ما أمامك قد تضاعف .

- كيف ؟

- أعنى اذا نظرت مثلا الى هاتين الزجاجتين اللتين أمامك على المنضدة .

ثم أشار الى زجاجتين كهاتين اللتين أمامنا على البار وأردف قائلا :

- فوجدتها أربعة .. فاعرف أنك قد سكرت وانصرف .

فنظر الابن الى الأب وجذبه من يده فى سكون قائلا :

- اذاً فلننهض يا أبتاه لأن ما أمامنا على المنضدة ليس سوى زجاجة واحدة .

وانطلقت أقهقه .. مستملحا النكتة التى ألقيتها .. ولكن الساقى اللعين لم يقهقه ، بل نظر الى وأجاب فى لهجة محذرة :

- سيدى .. انصرف .. أرجوك .. لأنه لايوجد أمامك على البار ولا زجاجة .

وغادرت البار .. فقد أدركت أن الثامنة لابد أن تكون قد أدارت رأسى قليلا .. فجعلتنى أرى على البار زجاجات .. دون أن يكون هناك شىء ، ولكنى أؤكد لكم مع ذلك أنى لم أصل الى حد السكر .. انه مجرد دوار .. يصحبه شعور بالانبساط .. ورغبة فى الغناء .

ولكن .. هذا السلم اللعين لم ينته بعد ..كل هذا الصعود ولم أبلغ حجرتى .

السفلة .. اللئام .. الغشاشين .. لقد تذكرت خديعتهم ، وتذكرت محاولتى كشفهم .. لقد بدأت فى عد السلم .. ماهو آخر رقم وصلت اليه .. ويحى .. لقد نسيت .. لا بأس .. لنبدأ من جديد .. لأنزل ما صعدت .. ثم أبدأ العد ثانية .

هذه هى الدرجة الأولى .. واحد .. اتنين .. تلاتة .. أربعه .. خمسه .. ستة .. سبعة .. سبعة .. سبعة .. سبعة ؟ !! سبع ماذا .. هذه المرة لابد أن أتذكر جيدا .. ماذا أعد .. سبع قروش .. سبع صنايع .. سبع سموات . سبع سواقى . أجل .. أجل .. ليس هناك غير :

سبع سواقى بتنعى لم طفو لى نار
يا منية القلب قوللى ازاى عشق الجار

وانطلقت أغنى .. وأحسست بصوتى جميلا .. كأجمل ما سمعت .. وأصابنى طرب .. فتربعت على السلم فى موضعى :

يبقى النظر فى النظر والقلب قايد نار
شط البحور مرقدى والموج بنا لى دار

وأخذت أردد شط البحور مرقدى .. مرارا وتكرارا حتى أحسست بألم فى ركبتى وتخديل فى ساقى .. وأدركت أن السبب هو أن «السلم مرقدى» وليس شط البحور .. فكان على أن أنهض .

أجل .. أجل .. ما هكذا يكون مرقد أكابر الناس !! هذه قلة قيمة .. لو رآنى عليها أحد لاتهمنى ظلما بالسكر .

لا .. لا .. لابد أن أنهض وأصعد الى حجرتى .

ولكن هذا السلم .. لاينتهى أبدا .

السفلة .. الكلاب .. أولاد الكلاب .. غشونى .. خدعونى لابد أن أعده .. أين وصلت ؟

لعنة الله على .. لقد نسيت .. هذه تانى مرة أنسى .. لابد أن أجد طريقة حاسمة للعد .. أجل .

عرفت .. فكرة هائلة .. سأريهم كيف تكون المهارة فى الضبط والكشف عن التحايل والنصب .

سأنمر السلم .. أجل .. ولم لا ؟ .. سأضع رقما على كل درجة . حتى أستطيع كشفهم فى الصباح اذا تلاعبوا فى السلم .. وحتى لا أنسى العد كما نسيت فى المرات السابقة .

لنهبط ثانية .. أجل هكذا .. ان الهبوط سهل جدا .. ليتنى أستطيع أن أقلب السلم .. فأهبطه بدل أن أصعده .. ولكن كيف أستطيع .. دون أن يساعدنى أحد .. لأذهبن الى الساقى وأطلب منه المساعدة :

– اسمع .. يا أخينا .

– سيدى ؟ !! ألم تصعد بعد ؟

– وكيف أصعد بعد أن فعلوا بالسلم ما فعلوا .. اسمع أريد منك مساعدة بسيطة .

– فيم ؟

– فى قلب السلم .

– قلب ماذا ؟

– لاتصرخ هكذا حتى لايسمعك أحد .. أقول قلب السلم .. لأنى أستطيع الهبوط أسهل من الصعود .. فاذا ما قلب هبطت الى غرفتى بدل أن أصعد اليها .. ثم عدلته ثانية .

– اسمع ياسيدى .. السلم ثقيل جدا .. وأرى أنه أسهل كثيرا أن تقلب نفسك أنت .

– أتظن ذلك ؟

– لاشك .. لقد جربتها كثيرا .

– حسن .. ولكن أرجوك اعطنى قلما كى أنمر الدرجات حتى أعرف عددها بالضبط .

- أظن فى جيبك قلما ياسيدى .

- أجل .. أجل .. تذكرت .. ولكن هل تظن القلم يترك أثرا على الدرج ؟ .. ألا تستطيع أن تعطينى قطعة من الطباشير الذى تكتب به الأرقام على هذا اللوح ؟

- تفضل .

ووقفت أمام الدرجة الأولى .

أيها المحتالون .. لقد وقعتم فى يدى .

وبدأت الترقيم .

واحد .. اتنين .. تلاته .. أربعه .

فكرة مدهشة .. ستقضى عليهم .. سيذهلون عندما يجدون خديعتهم قد كشفت ومكرهم قد بان .

خمسة .. ستة .. سبعة .. برافو .

هكذا يكون الذكاء والعمل والا فلا .. ثمانية .. تسعة .. عشرة .

حتى وصلت الى العشرين .. فاذا بالطرقة الموصلة الى غرفتى قد ظهرت .

عجبا !! عشرون فقط !! غير معقول .

أيها الجبناء .. لقد عدتم تتراجعون وخفضتم العدد مرة أخرى .. عندما وجدتمونى أوشك أن أضبط احتيالكم . ان الطيبة لاتجدى معكم .. سأحتفظ بالطباشير فى جيبى .. حتى أنمر السلم فى كل مرة .. وأريكم أنى لست أنا الذى تستطيعون خداعه .

ولكن .. ما هذا !!

مرة أخرى .. عادوا الى خداعهم .. وألاعيبهم .. ان الطرقة طويلة جدا .. انها لم تكن كذلك فى الصباح .. ولشد ما أخشى أن أضل الطريق الى حجرتى .. وأخطئها الى حجرة أخرى .

هذه هى المشكلة الكبرى .

كيف أصل الى حجرتى .. بعد أن أطالوا الطرقة مثل هذا الطول العجيب ؟ .. ومن يدرى ربما يكونون قد خلطوا الحجرات ووضعوا هذه موضع تلك ، وتلك موضع هذه ، زيادة منهم فى الخداع والتضليل .. أو ربما يكونون قد زادوا عدد الغرف أو أنقصوها ، وربما تكون غرفتى قد ضاعت ضمن الغرف الضائعة .

على اية حال يجب أن أدقق جيدا .. أنا أذكر أنها الرابعة أو الخامسة على اليمين .. ولكن لابد من التحديد .

لعنة الله عليها .. هذه الكأس الثامنة .. كان يجب أن أتوقف عند السابعة حتى أستطيع أن أحدد الحجرة جيدا .. وحتى لا أخطئها الى حجرة مجاورة .

ولكن .. لم كل هذا ؟ ! لماذا أريد ألا أخطئها ؟! وماذا يضيرنى فى أن أذهب الى غيرها ؟ أى شىء خطير ثمين بها يجعلنى أخشى أن أخطئها .. وأصر على تحديدها والاتجاه اليها .. هى دون غيرها من الحجرات .

أجل .. تذكرت .. انها زوجتى .

أجل .. أجل .. زوجتى .. انها رابضة هناك .. تنتظرنى كما تعودت أن تنتظرنى فى البيت كل ليلة .. كما ينتظر السجان سجينه ، والآسر أسيره .

لقد رحبت بهذه السفرة الى الاسكندرية .. رغبة منى فى الانطلاق من اسارها والتحرر من قيد مراقبتها .. التى تطبقه على كما يطبقه المخبر على المراقب .. فلا تفلت منه حركة ولا سكنة .

كنت أعلل النفس بأمال عن الحرية طوال عراض .. كنت أمنى النفس ببحبوحة من الهلس والخبص والبرم . وكنت أتخيل النساء ترتمى بين أحضانى فى حجرتى الخالية .. وأمعن بى الخيال امعانا لم يوقفه الا قولها ببساطة : انها ستأتى معى .

ورغم انفجار كلمتها فى نفسى وتدميرها قصور التحرر التى بنيتها فى ذهنى ، فقد جاهدت أن أتمالك وأدعى عدم الاكتراث وقلت لها فى هدوء :

- ولكن البنت .. هل ستبطلينها من المدرسة ؟

- لا .. سأتركها عند أمي .

لعنة الله عليك .. وعلى أمك (قلتها في سرى طبعا) .. وحاولت بمختلف الطرق أن أثنيها عن عزمها دون أن تشعر أنى لا أريدها .. حتى لاتشك فى سوء نواياى .. ولكنها كانت قد صممت على مصاحبتى .

والآن .. انها تجلس مرابطة في حجرتي .. تنتظر أوبتي بعد أن قلت لها انى سأجلس على البار لأشرب كأسا أو كأسين ثم أصعد اليها .

وبعد هذا أريد ألا أخطىء حجرتى .

لعنة الله على من أحمق غبى .

يجب على أن أخطىء الحجرة .. أجل يجب .

بعد هذا الخلط الذى صنعه السفلة اللئام بالحجرات والطول الذى أضافوه الى الطرقة .. والحجرات التى تتأرجح والأرض التى تهتز والسقف الذى يدور .. بعد كل هذا .. يجب على أن أخطىء الحجرة .. والا كنت مغفلا كبيرا ، بل كنت شيخ المأفونين .

أجل .. أجل .. ان الأصول فى مثل هذه المواقف .. ومع مثل هذه الزوجة .. أن يخطىء الانسان غرفته .. الى غرفة أخرى أفضل .. أو على الأقل ليس بها زوجته .

وهكذا استقر بى الرأى على أن أخطىء غرفتى .

ولكن كيف ؟ كيف أخطئها ؟ . لكى يخطىء الانسان شيئا يجب أولا أن يعرف مكانه حتى يخطئه .. وأنا .. لسوء الحظ لا أعرف مكانها بالضبط .

لعنة الله عليها .. لا ، ليس على امرأتى ، بل على الكأس الثامنة .. أو عليهما الاثنتين .. بالمرة .

أنا أعتقد أنها كانت الحجرة الثالثة ، أو الرابعة .. على اليمين .. أم هى الرابعة أو الخامسة .. لست أدرى .

على أية حال ، من باب الاحتياط ، يجب أن نخرج الثلاثة من الحساب .. فلا أقرب أية واحدة منها .

أمامى اذاً أية حجرة .. غير هذه الثلاث .. كيف أنتقى ؟

أظن ما دمت أنوى أن أخطىء الحجرة ، وما دمت أنوى أن أغامر .. فيجب على أن أنتقى جيدا .

صحيح ان مجرد البعد عن زوجتى والفكاك من أسرها يعتبر غنيمة .. ولكن لم لاتكون الغنيمة غنيمتين ؟ ولم لا أصيب - كما يقول المثل - عصفورين بحجر ؟

لم لا أنتقى حجرة ذات عصفور ثمين .. مليح .. حتى تكون المسألة تستحق المغامرة ؟

وتذكرت المرأة التى أبصرتها تدخل فى الصباح حجرة مجاورة لحجرتى .. وأحسست برأسى يدور أكثر مما هو دائر وبالحرارة تشع فى عروقى .

وتذكرت جسدها الذى بدا لى مفصصا كأنما قد صنعت أعضاؤها كل على حدة صنعا كاملا مستوفيا .. ثم ركبت الى بعضها البعض ، ثم ضمت بغلالة رقيقة لم تستطع أن تخفى كل عضو على حدة .

هل فهمتم ما أعنى .. لقد كان صدرها وحده .. وردفها وحده .. وساقاها وحدهما .

على أية حال .. لا ضرورة لأن تفهموا .. المهم أنها مرت بى أول مرة فعلق بها بصرى ، وملأ عبيرها خياشيمى .. وفى المرة الثانية منحتنى ابتسامة .. بدت فى ظاهرها تحية جارة وفى باطنها جعلتنى أتمنى لو أدفع نصف عمرى وأعيد زوجتى الى القاهرة .

وعندما استعدتها فى ذاكرتى .. وأنا أقف وقفتى هذه .. وقد نويت أن أخطىء حجرتى .. استقر بى العزم .. على أن يكون الخطأ مصوبا اليها .

انها تنزل وحدها فى الغرفة .. وهى بنظراتها المستدعية المغرية لن تدهش كثيرا اذا أنا تسللت اليها .. فأنا أفهم نظرات النساء جيدا .. أفهمها بالضبط عندما تقول لنا «تعال» .

وعلى أسوأ الفروض .. لو حدث أى شيء مما لا أتوقع . فسأقول : انى أخطأت الغرفة .. والمسؤول الأول فى ذلك ، هم الكلاب أولاد الكلاب .. الذين أطالوا الطرقة وخلطوا الغرف .

هيا .. هيا .. قبل أن تقلق زوجتى وتخرج للبحث عنى فتجدنى فى الطرقة فتطبق على وتدخلنى الى الحجرة وتضيع الليلة سدى .

وأحسست بالغبطة وأنا أذكر زوجتى .. وكيف سأفلت منها وهى بالقرب منى قاب قوسين أو أدنى .. وكيف سأخدعها رغم مطاردتها لى .

المسألة الآن تنحصر فى أن أصل الى حجرة صاحبتنا الشقراء الهيفاء المفصصة ..

نترك الثالثة والرابعة والخامسة .. ان الحجرات متشابهة لعنة الله على الذاكرة الضعيفة .

أظن حجرتها السادسة .. ولكن ماذا يحدث اذا لم تكن هى ؟ .

على أية حال .. لتكن ما تكون .. انها قطعا لن تكون غرفتى وهذا هو المهم .. والمسألة بعد كل هذا مغامرة أو مقامرة .

هيا لاداعى للتردد .

ووضعت يدى على أكرة الباب وضغطت ، وانفتح الباب فتسللت الى الداخل .

لحظة واحدة أتمالك أنفاسى .. أعذرونى .. أنا لست جبانا ولكنها المرة الأولى التى أقدم فيها على مثل هذا العمل .

صدقونى أنه ليس من السهل على المرء أن يقتحم مخدع امرأة غريبة لايعرفها .. ان الحجرة مظلمة الا من ضوء سهارى موضوع على المنضدة الصغيرة المجاورة للباب .

يجب على أن أفحص الحجرة .. انها شديدة الشبه بحجرتى حتى لقد مرت بذهنى لحظة خشيت أن أكون أخطأت الحجرة فدخلت حجرتي .. ولكن نظرة الى موضع المقاعد والمنضدة والدولاب .. جعلتنى أجزم أنها غرفة أخرى .

حسن .. بقى على بعد هذا أن أتاكد أنها غرفة صاحبتنا . لحظة واحدة .. حتى أتأكد .. ان الفراش فى آخر الغرفة قريبا من شرفة زجاجية صغيرة تطل على الفناء الأمامى .. وهذا الباب الذى على اليسار .. لاشك يؤدى الى دورة المياه ، وهو يماثل الذى فى حجرتى .. ولكن الآخر على اليمين .

ان ألفراش يبدو به شبح جسد واحد .. وهذا مطمئن . فهو يؤكد لى أنى فى الطريق الصواب .. بقى على أن أعرف ما اذا كان الجسد لامرأة أم لرجل .

فاذا كان لرجل تسللت الى الخارج وعدت من حيث أتيت لأبحث فى حجرة أخرى .

واذا كانت لامرأة ؟

يكون على أن أعرف هى صاحبتنا أم لا .

ولكن هبها ليست هى ، ولكنها امرأة :. اذاً نجرب معها فاذا قاومت وثارت .. اعتذرنا وغادرنا الحجرة .

واذا استسلمت ؟ . خير وفضل .. انها امرأة على كل حال وهى ليست زوجتى .

واقتربت على أطراف أصابعى .

هس .. ولا كلمة .

انها هى .. ليست بعينها .. ولكن بشعرها .. أجل .. استطعت أن أميزها برغم الظلمة المحيطة التى لم يفلح الضوء الخافت على المكتب فى تبديدها .

وتقدمت .. ويعلم الله أو على وجه أصح يعلم الشيطان .. أى جرأة عجيبة ، دفعتنى دون تفكير ولا روية الى أن أنزلق بجسدى - كما أنا

بملابسي - في فراشها .. وتحت غطائها لأجد جسدها اللين الدافيء ملاصقا لجسدي .

لا تنتظروا مني أن أشرح لكم التفاصيل فأنا رجل حي خجول عف اللسان .. وأسرار المضاجع يجب أن تبقى في مضاجعها .. تفعل ولا تحكى .. نفعلها كلنا ونستحي من ذكرها كلنا .

المهم .. أني تمتعت بها كما لم أتمتع بامرأة في حياتي .. لقد تناومت .. واستمرا كلانا تناومها .. ورأيتها ممعنة في تناومها فلم أوقظها .. حتى عندما غادرت الفراش وهممت بمغادرة الحجرة .

مغامرة عجيبة .. وحظ أعجب .

لا أظن الا أن كلا منكم يتمناها لنفسه ، ولا أظنها تحدث لنا في حياتنا كثيرا .. ولا حتى قليلا .

وكان رأسي يدور من النشوة ومن نجاح المغامرة وأنا أهم بوضع يدي على الأكرة لأفتح الباب وأغادر الغرفة بسلام .. عندما وقعت عيني على مظروف على المنضدة الصغيرة المجاورة للباب ، وأبصرت على الضوء الخافت اسم صاحبه :

«مدير الشركة الأهلية الفنية للشرق الأوسط» .

وأدركت أن المذكور لا بد أن يكون زوجها ، وتملكتني رجفة من نقمة رأسي الى أخمص قدمي .

اذا فهي امرأة متزوجة .

نهار أبي أسود .. ان لم أخرج حالا .. حالا .. فقد يكون زوجها المحترم عائدا في هذه اللحظة .

وفتحت الباب وفي غمضة عين كنت خارج الغرفة .

الحمد لله .. وتنفست الصعداء .. هذه الخطوة القصيرة فيها نجاتي .. فالفارق بين أن أكون داخل الغرفة وخارجها كبير .. كبير جدا .. قد يكلفني

حياتي .. لو كان المدير المذكور رجلا أبيا متهورا لايسلم شرفه الرفيع من الأذى الذى ألحقته به .. الا اذا أراق على جوانبه دمى .

ومرة أخرى أحسست بنشوة الانتصار وأنا أقف فى الطرقة سليما معافى .. بعد أن تمتعت بخيانة زوجتى ، وأكثر من هذا .. بخيانة رجل آخر .

وأى رجل .. مدير محترم .

انها لو تعلمون متعة كبرى .

أأعود الى حجرتى ؟ لا .. لا .. ليس قبل أن أحتفل بانتصارى العجيب على زوجتى .. وعلى المحترم مدير الشركة الفنية الأهلية .. الخ .

أجل .. لقد صممت على أن أهبط مرة أخرى الى البار ، لأشرب نخب ليلتى الحمراء .. كأسا تاسعة .

والهبوط كما قلت لكم سهل جدا ، والطباشيرة فى جيبى .. ولن يستطيع السفلة مغالطتى عند الصعود ثانية .

ووقفت أمام الساقى ، وهو ينظر الى فى دهشة :

- ألم تصعد بعد الى حجرتك ياسيدى ؟

- هات كأسا لى .. وكأسا لك ، واشرب نخب الخيانة الزوجية .. ألم تخن امرأتك أبدا ؟

- أبدا يسيدى .

- مسكين .. أنت لم تعش .. ألم تخن رجلا آخر ؟

- أستغفر الله .

- أيها التعس .. لقد ذهب عمرك سدى .. سلنى أنا عن هذه المتعة .. انها حياة أخرى .. انى فى هذه الليلة أقدمت على ..

ولكن قبل أن أشرح له ما فعلت .. لمحت رجلا يقبع فى ركن البار ، وقد أخذ ينظر الى نظرة فاحصة .

وأصابتنى رجفة .

ويحى .. أيمكن أن يكون هو ؟ .. لم لا .. محتمل جدا أن يكون مدير الشركة الأهلية الفنية .. وهو يبدو عريض القفا .. غليظ الجسد .. غبى المنظر كغيره من المديرين .

حمدا لله أني لم أنطلق فى حديثى .. كان يحتمل أن تضيعنى زلة لسان .. وصدق من قال : «لم يروهم يسرقون .. ورأوهم يتحاسبون» .

خذوها نصيحة منى ، عندما ترتكبون الاثم ، اربطوا ألسنتكم وادفعوها فى حلوقكم ، فليس أفضح للانسان من لسانه .

وشربت الكأس التاسعة في صمت .. وأردفتها بالحادية عشرة بعد أن أعطيت الساقى العاشرة .. دون أن أعود لذكر الخيانة الزوجية ، خوفا من الرجل القابع في آخر البار ، والذى كان ما زال ينظر الي نظرته الفاحصة .

ولم أجد بدا من الهروب من نظراته .. فقد خشيت أن يفضحنى لسانى .. وتحسست الطباشيرة حتى لايخدعنى اللئام فى عدد السلم .. ثم أخرجت المحفظة لأعطى الساقى ثمن الكؤوس الثلاثة .

ولم أكد أنظر الى المحفظة حتى فغرت فمى ، وانطلقت منى صيحة دهشة لم أستطع كتمها .

واخيبتاه .. وامصيبتاه .. واليلتاه !

المخادعة .. المحتالة .. السافلة .

لقد خدعتنى وغررت بى .

تقولون سرقت نقودى ؟ .. لا .. لا .. ليتها فعلت .. لقد سرقت ليلتى .. لقد غشتنى .

لاتفهمون ...

وماذا يفيدنى في إن تفهموا .. بعد أن ضاعت الليلة .

لقد فتحت المحفظة لأخرج النقود ، فوجدت بها بطاقة كتب عليها «فلان الفلانى مدير الشركة الأهلية الفنية للشرق الأوسط» .

وفلان الفلانى - ان كنتم لاتعلمون - هو أنا .. أجل أنا نفسى .. الأحمق المأفون .. مدير الشركة المذكورة ، والتى أضعت معها ليلتى .. هى المخادعة .. المحتالة .. الغشاشة .. زوجتى .. ولكن ما ذنبها هى .. الذنب ذنبى أنا .. ذنب الكأس الثامنة .. لعنة الله عليها .

ومددت يدى بالنقود للساقى وأنا أقول له :

- لاتصدق ما قلت لك عن الخيانة الزوجية .. المسألة كلها وهم فى وهم .

وعندما مررت بالرجل القابع فى ركن البار الذى أخافنى بنظراته ، نظرت له وقلت فى غيظ :

- مالك اذاً تنظر الى هكذا . انها زوجتى أنا أيها الغبى .

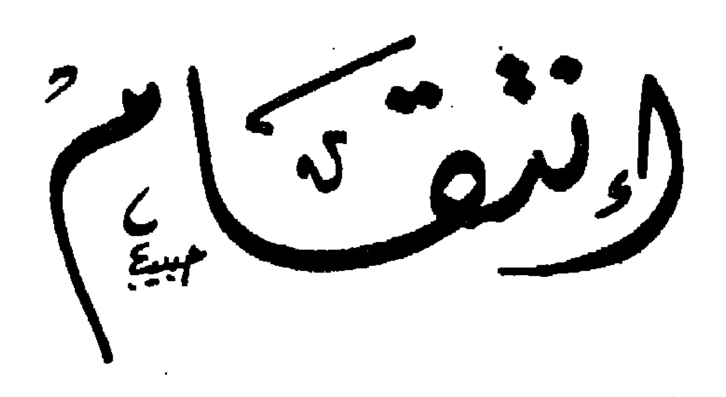
ولم يفهم الرجل شيئا .

واتجهت الى السلم .. ووقفت أمام الدرجة الأولى وبدأت التنمير .. واحد .. اتنين .. تلاتة .

أيها السفلة اللئام .. كلكم خداعون غشاشون .

وعلى رأسكم .. تلك الرابضة فى حجرتى .. التى أضاعت على ليلتى .





وأطرقت برأسي وأحسست للرجل بالرثاء والعطف .. لقد ثلم عرضه .. وخدش شرفه .. حقيقة أنه انتقم ، ولكن ليته ما انتقم وما علم !

دق جرس التليفون .. وأمسكت بالسماعة فاذا بصوت صديقتى «م» يهتف :

– ألو .. أهلا وسهلا .. كيف الحال .

– الحمد لله .. من أين تتكلمين ؟

– من البيت .. متى سألقاك ؟

– ليس اليوم .

– ولم ؟

– مشغول .

– بغيرى ؟ ! أنت دائما مشغول ، ولكن ذلك لن يمنع من أن نلتقى .

– هذه المرة .. مشغول وقرفان .

– مم ؟ .. كفى الله الشر .

– أريد أن أكتب .

- ولم لاتكتب ؟

- ليس عندى ما يكتب .

- المسألة بسيطة .. اذا لم يكن عندك ما يكتب فلا تكتب .

- أرجوك .. وفرى نصائحك .. ليس لدى وقت الآن أضيعه فى الدردشة .

- ولكن لابد من أن ألقاك الليلة .. ان الأستاذ « ح » يريد أن يتعرف بك وقد أعطيته موعدا لنلتقى فى جروبى الساعة السابعة فلابد لك من الحضور .

- لن أحضر .

- ولكنى أعطيت الرجل ميعادا .

- يجب أن تتعلمى ألا تعطى مواعيد بالنيابة عنى .. ان وقتى ليس ملكا لك .. أنا وحدى الذى أتحكم فى وقتى .

- هذه آخر مرة .

- ولكن يجب أن أكتب .

- ألم تقل ان ذهنك ليس به ما يكتب .. ما الفائدة فى أن تخزن نفسك فى البيت .. انى أستطيع معاونتك .. ان لدى مئات القصص التى أستطيع أن أقصها عليك لتساعدك .

- قصصك قديمة وبايخة .

- لدى قصة جديدة مدهشة وقعت للأستاذ «ح» سأجعله يقصها عليك .

وكان الأستاذ « ح » ممثلا أستلطفه عن بعد ، ورأيت أن صاحبتى على حق .. وأنه لا فائدة من أن أسجن فى البيت ما دام الذهن فى حالة تبلد وجمود ، وأنه خير لى أن أخرج للترويح عن نفسى .. من يدرى .. قد يكون لديهما حقا ما أستطيع كتابته .

وغادرت الدار ملقيا بالورق والقلم ، وفي الساعة السابعة كنت أقبع في أحد أركان جروبي ولم تمض لحظة حتى أقبلا على .

وقامت صاحبتي بعملية التعارف ، ومضت فترة التحيات الأولية ، وفترة أخرى تبادلنا فيها أنا والاستاذ « ح » آيات الاعجاب وتقارضنا المديح والثناء .. فقلت له انه أنبغ الممثلين . وقال لي انني أقدر الكتاب .

وضحكت صاحبتي وقالت لنا :

– كفاكما نفاقا !

ثم وجهت القول لي :

– ألا تريد أن تسمع القصة .. ألم تقل انك مزنوق وفي عرض قصة ؟

وضحك الأستاذ « ح» وفرك يديه ثم قال :

– نحن في الخدمة .. الأستاذ محتاج لقصة درام ؟ !

– أهي قصة واقعية ؟ .. أم تنوى تأليفها ؟

– واقعية ، ولكن يمكن أن تكون دراما ، وأن تكون كوميديا كما تشاء .

– لاداعي للدرام .. لست على استعداد للحزن .

– اذن فدعنا ندخل في القصة رأسا .. سأذكرها لك كما وقعت .. بلا حواشي ولا رتوش .. وضعها أنت كما تشاء ..

أنت تعرف – أو لاتعرف – أنني أقطن في شقة في عمارة ايموبيليا .. شقة صغيرة .. على قدر الحال ، وقد مضى على ما يقرب العام وأنا في شقتي لا أكاد أعرف من يقطن بجوارى ولا فوقي ولا تحتي ، فالعمارة أشبه ببرج بابل ، ووقتي ضائع بين الاستديو والمسرح ، فأنا لا أكاد أستقر فيها لحظة .. حتى أحاول أن أعرف شيئا عن جيراني .. لا أكاد أعرف في العمارة الا شقتي والطريق الذى يوصلني اليها .. أغادر الشقة من الباب فأعبر الدهليز الضيق الي الأسانسير ، ثم أهبط وحيدا أو مع أناس عابرين لاتكاد تستقر أشكالهم في رأسي حتى تنمحي .. فاذا ما لقيتهم مرة أخري .. بدا لي أني ألقاهم لأول مرة .

ومنذ بضعة أيام عدت الى الشقة بعد منتصف الليل عقب احدى حفلات السواريه التى كنا نقوم بتمثيلها فى الأوبرا .. وارتفع بى المصعد حتى توقف أمام الطابق الذى أقطن فيه ، ثم اتخذت طريقى فى الممر الضيق المظلم ، وضغطت الزر الكهربائى فعم الضوء ، ودفعت المفتاح الصغير فى ثقب الباب ثم دلفت الى الداخل .

وبدأت أخلع ثيابى فى عجلة وأقذف بكل قطعة فى ناحية عندما سمعت جرس الباب يدق .. فأنصت فى دهشة ، وخلتنى واهما .

أى طارق يمكن أن يطرق بابى فى مثل هذه الساعة من الليل ؟ .

ومضت برهة وأنا أرهف السمع دون أن أحاول أن أذهب الى الباب لكى أفتحه ، حتى عاد الجرس يدق مرة أخرى .

من يكون ؟ .. لص ؟! .. ناع جاء يسوق الى نبأ فاجعة أو نازلة ؟!

واقتربت من الباب فى حذر وتساءلت فى صوت كسوته ما استطعت من الشجاعة :

– من ؟

وأجابنى صوت .. هو آخر ما كنت أتوقع .. صوت امرأة .. ناعم رقيق :

– أنا .. افتح .

وبلا أى تردد تقدمت الى الباب ففتحته على مصراعيه .

من يرفض أن يفتح لهذا الصوت الجميل ؟!

ورأيتها رأى العين .. امرأة فارعة الطول .. ممشوقة القد .. مستوية ناضجة .. فى أتم جمالها وأوفر أنوثتها !

– أتسمح لى بالدخول ؟

أسمح ! .. يا نهار اسود !

أنا لاشك في حلم ..

هذه المرأة تريد الدخول ؟ الى شقتى أنا ؟!

لقد بدا لى أنها أخطأت الشقة أو أنها تود أن تسأل عن شيء ، ولم يخطر ببالى أبدا أنها تقصد الدخول .

وتملكتنى حيرة شديدة ، لم أستطع معها أن أنبس ببنت شفة ، ولم تنتظر المرأة اجابتى بل دلفت الى الداخل فى ثقة وجرأة !

وخلعت معطفا فوق كتفيها فوضعته على المشجب ، ثم استقرت على مقعد كبير مريح ووضعت ساقا فوق ساق وسألتنى سيجارة .

وبلا أى تفكير ولا ارادة .. وكأى مذهول تقدمت اليها بالسيجارة وأشعلتها لها فى حيرة ودهشة .. وبى شك فى أن المسألة لاتعدو أن تكون وهما أو حلما .

وتكلمت مرة أخرى فسألتنى عن شيء يشرب :

- شيء يشرب ؟! .. ويسكى ؟ .. كونياك .

- ويسكى صودا .

ونهضت الى البوفيه فأخرجت زجاجة ويسكى ، وذهبت الى الثلاجة فأحضرت بضع زجاجات من الصودا ، وشيئا من المزة .. جبنه وزيتون وعلبة سردين .

من يصدق هذا ؟

سهرة تهبط من السماء .. لقد أحسست أنى ثمل نشوان . قبل أن تمس شفتى الشراب .

وجلسنا نشرب ونمز . والأسئلة تتزاحم فى رأسى : من تكون ؟ وما أمرها ؟ ! وما قصدها ؟ !

ورفعت الكأس الى شفتيها فأفرغته فى جوفها مرة واحدة .

وهممت بضع مرات أن أسألها ايضاحا ، ولكنى جبنت وخشيت أن أكون فى حلم جميل فأضيعه بالسؤال .

ووجدتنى أنهض من مقعدى فأجلس على حافة مقعدها ، ثم أمد يدى فأضعها على ذراعها البضة .

وكانت ترتدى «كم جابونيز» يسمح لليد بالتسلل الى الداخل والتجول .. وأخذت يدى تنتقل من ذراعها الى ما فوق الذراع .. الى الكتف .

ولم تبد المرأة اعتراضا .. بل تركتنى أتحسس كما أشاء .. وهممت بضمها .. ولكنها أبعدتنى برفق ، ثم قالت فى صوت خفيض :

- لا أريد منك أن تتساءل من أكون .. وماذا أريد .. وكيف أتيت ؟ لا تسأل عن شىء . سأهبك ليلة بلا ثمن ، أو بثمن لايكلفك سوى الصمت .. ما رأيك ؟

ولم أكن فى حاجة الى السؤال ، فقد كنت أريدها بأى ثمن !

وأجبتها بالموافقة .. فاستسلمت .

وأخيرا همت بالانصراف وهى تقول محذرة :

- لاتحاول أن تقتفى أثرى .. أو تعرف من أكون .. اعتبر كل ما بيننا منتهيا .

- كيف ؟! .. كيف أتركك تذهبين بهذه السهولة ؟ ..

وصمتت برهة .. وهى تفكر .. ثم قالت :

- اسمع .. يخيل لى أن من الخير أن أرضى فضولك . أنا أعلم أنه أمر عسير أن أتركك هكذا حائرا .. انى زوجة « س » بك .. الذى يقطن الشقة التى أسفلك .

وأحسست بالخجل الشديد .. من نفسى .. أأنا أخون جارى ؟

وأخذت المرأة تتمم حديثها قائلة :

- ولقد فعلت ما فعلت لكى أثار لنفسى ، ولك .

- تثأرين لى .. أنا ؟ !

- أجل .. أثأر لك من زوجتك الخائنة .. التى ضبطتها مع زوجى .. عندما ظن أنى سافرت فدعاها الى شقته في غيبة منك .. وعدت فجأة فوجدتهما معا فى فراش واحد .. فصممت على أن أنتقم لنفسى منه ولك منها ، ما رأيك ؟ .

★ ★ ★

وصمت الأستاذ « ح » ، وأطرقت برأسى وأحسست للرجل بالرثاء والعطف .. لقد ثلم عرضه .. وخدش شرفه . حقيقة أنه انتقم ، ولكن ليته ما انتقم وما علم !

ورأيت القصة محزنة .. من نوع الدرام .. ووجدتنى - دون أن أدرى - أرفع رأسى اليه وأسأله فى دهشة :

- ولكنك قلت أن القصة ليست درامة بل كوميديا ؟

- وماذا كنت أستطيع أن أقول للمرأة .. بعد أن قالت ما قالت .. هل كانت هناك فائدة فى أن أخبرها بأنى لست متزوجا ، وأن الرجل الذى تعنيه هو (ع) بك .. الذى يقطن فى الشقة المجاورة التى تقع فوق شقتهم وأنه هو صاحب الزوجة الخائنة ؟ ! ما الفائدة فى أن أضيع مجهودها سدى ؟ ! . ان كل ما استطعت أن أفعله هو أن أقول - فى سرى - للجار المسكين : «تكون فى بقك ، وتقسم لغيرك» .





من يجفف الدمع ويحقن الدماء ؟! من يجبر الأوصال .. ويشفى الرؤوس ؟ من أقدر على هذا .. سوى .. «نكتة حلوة» تنسينا الهموم .. وتصفى أكدار الحياة ؟ ..

لقيته تحت شجرة جميز ، غليظة الجذع ، وارفة الظلال ، وقد خلع مركوبه ينفس عن قدميه ، وبدت ساقه العارية بيضاء تطل من سرواله الأسود المنتفخ ، وأحاط خصره بحزام عريض ضغط بطنه المنتفخ ، وانبسطت لحيته على صدره ، وعلت العمامة الضخمة رأسه .. وبدا لى منظره وقورا يوحى بالاحترام والتبجيل .. لولا أمران بدّدا هيبة الرجل وأضاعا وقاره .

أولهما حبل شدّ به عنقه وربطه فى فرع من فروع الشجرة ، وثانيهما انطلاقه الشديد فى ضحكة مفاجئة .. وقهقهة مباغتة يهتز لها بطنه وتترنح أعطافه .. ثم يظل يرفص بقدميه ويصفق بيديه من فرط الضحك .

ووقفت على مقربة منه ، أرقبه دون أن يرانى ، وأتلفت حولى وحوله .. علّى أجد مبررا لضحكه .. أو سببا لقهقهته ، فلم أجد سوى حماره .. يرعى العشب فى سكون وتؤدة وصمت وقور .

وأخيرا كف الرجل عن القهقهة .. وهدأت الزوبعة التى هزت كيانه ، وأفاضت من عينيه دموع الضحك .. وأخذ يمسح عينيه بطرف كمه .. ثم

وجدت وجهه قد اكتسى فجْة جلة الجد .. وعلته مسحة ضيق وملل .. وأخذ يقلب شفتيه بين آونة وأخرى مبديا اشمئزازه .

وتملكنى الدهش .. ولم أشك فى أن الرجل - رغم وقار مظهره - به مس من خبل .. وخاصة أني وجدته بعد هذا الضيق والتبرم يندفع ثانية الى عاصفة من الضحك الصاخب ويكاد - لولا الحبل فى عنقه - أن يستلقى من فرط الضحك على قفاه .

وهكذا استمر الرجل .. يتأرجح بين الضحك والتبرم .. يضيق بنفسه مرة ويضحك منها مرات .. والحبل فى عنقه .. والحمار يرعى من حوله حرا طليقا وقورا .

واستبدت بى الدهشة وأخذت أقترب منه وقد عقدت العزم على أن أتبين سبب سروره وضحكه .. أو ضيقه واشمئزازه .

وأقرأته التحية فى أدب واحترام .. ثم قلت :

- أيسمح سيدى أن أشاركه ظل الله فى أرض الله ؟

ونظر الىّ واندفع مقهقها ، فقد كانت النوبة نوبة الضحك ، وأحسست من ضحكه بخجل شديد .. وكرهت أن أكون موضع ضحك وسخرية .. وهممت بأن أؤنبه .. لولا أن كف عن هذا الضحك ، وأجابنى فى رقة :

- أرض الله واسعة ، وظل الله مديد .. تكفى عباد الله كلهم لو كفوا عن الطمع والأنانية .. تفضل ياسيدى اجلس .

وتربعت بجواره بعد أن أزحت مركوبه جانبا .

ومضت فترة صمت .. وجدت فيها نوبة التبرم قد عاودته ، فبدأت أستدرجه الى الحديث قبل أن تعاوده نوبة الضحك .. وقلت له أعرفه بنفسى :

- أنا محسوبك فلان الفلانى .

- وأنا محسوبك جحا .

- جحا .. ؟ !

وتلفت الىّ مستغربا دهشا وهز رأسه وقال ببساطة :

- أى نعم .. جحا .. ألم تسمع بى من قبل .. ؟

سمعت بالطبع ، ولكن لم يخطر ببالى أنك ما زلت على قيد الحياة حتى الآن .. لقد ظننتك انقرضت منذ قرون خلت .

- أنا أنقرض .. ؟ ! جحا ينقرض ؟ ! حرام عليك .. كيف يعيش العالم بلا جحا ؟ العالم البائس الشقى .. المتعب المكدود .. المبهور الأنفاس .. السائل الدموع .. المراق الدماء .. المحطم الأوصال .. المصدوع الرأس .. كيف يمكن أن يحتمل العيش بلا جحا ؟

من يضىء البسمة البيضاء فى سواد الأحزان وحالك الشجن ؟ من يريح النفس المبهور والجسد المنهوك ؟ .. من يجفف الدمع ويحقن الدماء ؟ .. من يجبر الأوصال .. ويشفى الرؤوس ؟ . من أقدر على هذا سوى .. نكتة حلوة .. تنسينا الهموم .. وتصفى أكدار الحياة ؟ .

كيف يكون العالم لو خلا من نكتة حلوة ؟ .. العالم الجاد المكتئب .. كيف يكون بلا جحا ؟

ماذا يفيدنا شيوخه وقساوسته وعلماؤه وجهابذته ومخترعوه وعباقرته ؟

ماذا تفيدنا حكمة هؤلاء وفلسفتهم لو طوينا الأرض فى جد وعبوس ؟

كم شيوخ وقسوس أكثروا
فى انتقاد الكون حتى ثرثروا

بالغوا فى الحدس حتى حذروا
ثم سل الموت منهم مقولا

وغدت أقوالهم سقط متاع

ان ابرّ الناس بالناس .. وأرحمهم للناس ..من استطاع أن يمنحهم ضحكة .

(ليلة خمر)

أليس هدف الانسان الأول فى الحياة .. هو سعادة الفرد ؟ ألم توجد كل هذه الاختراعات والتعقيدات والحروب والثورات لكى تقود الفرد الى عيشة راضية ؟

لقد فشلت كلها .

لقد فشل رجال الفكر .. وأصحاب المبادىء ، والعلماء ، وقادة الحروب ، والقساوسة ، والشيوخ .. كل هؤلاء فشلوا فى أن يسعدوا الانسان .

ولكن فردا واحدا استطاع أن يسعده .. وأن يقتل أحزانه .. هو جحا .

جحا وحده .. الذى منحه هنيهات سعيدة ضاحكة .. بلا تعقيد ولا التواء .

جحا الرحيم العادل . الذى يهب الضحكة لساكن القصور . كما يهبها لساكن الكوخ .. لا يفرّق بين كبير وحقير .. يضحك هذا كما يضحك ذاك .

جحا الذى يجلو الصدور اذا ما حلّ بها صدأ المطامع والأحقاد .

ان ربح العمر ساعات الضحك .. واكثر الناس ربحا من استطاع أن يضحك دائما ، فجعل كل عمره رابحا .

كيف يعيش العالم بلا جحا وبلا نكتة حلوة ؟ . نكتة تضيف الى حلاوة الحياة حلاوة .. وتسلب العيش المرير مرارته .. تجمّل القبيح .. وتضفى على المليح ملاحة .

نكتة تغيّر المرئيات فى نفوسنا .. وتلوّن أمام أعيننا منظار الحياة .. وتنسينا البغضاء ، وتجعل قلوبنا أميل الى الحب وأقرب الى الصداقة والوفاء .

وصمت جحا . وأبصرته يمد يده فيوسع فتحة الحبل حول عنقه وهززت رأسى متسائلا :

– لم تربط نفسك بالحبل ؟

– نوع من المساواة !..

- أية مساواة ؟ ..

- بين الحمار وبينى .. !

- كيف ؟

- هو يربط مرة .. وأنا أربط مرة .. لقد اتفقنا على أن نتساوى فى كل شىء .. حتى الركوب ! . يركب هو مرة .. وأركب أنا مرة !

- وهل يركب هو .. ؟

- لا .. لأننى - منذ أن اتفقنا - فضلت ألا أركبه .. حتى لايجىء يوم يركبنى فيه .. آه لو يعلم كل راكب اليوم أنه سيركب فى غده .. لما ركب أحد قط .

- ولم تربط نفسك اذن ؟

- بينى وبينك .. هذه مسألة مريحة .. لو لم أكن مربوطا الآن لما استطعت أن أتمتع بالجلوس والراحة والتفكير .. ان الانسان يجب عليه من آن لآخر أن يجلس ويستريح ويفكر . ولو فعل كل انسان هذا .. لما أقدم على ارتكاب المساوىء .

ومسألة أخرى تريحنى فى هذا الربط .. هى أن الحمار هو المسئول أن يبحث عنى ، بدلا من أن أشغل نفسى بالبحث عنه !

وصمت جحا ، ورأيته يمد يده ويمسك بالمركوب ويدسه فى قدميه .. فنهضت للاستئذان حتى لا أثقل عليه ؛ ولكننى تذكرت فجأة السؤال الذى من أجله قدمت اليه وتحدثت معه ، وهو الاستفسار عما كان يضحكه .. ويثير تبرمه .

وسألته فى أدب وأنا أنهض واقفا :

- أتسمح لى بسؤال قد يكون فيه بعض التدخل فيما لايعنينى ؟

- سل ما تشاء .

- ماذا كان يثير فى نفسك هذه الزوابع من الضحك ؟

ونظر الىّ جحا فى دهش ، وهز رأسه مستغربا سذاجة سؤالى كأنما هو لايحتاج الى جواب ، وقال ببساطة :

- كنت أحكى لنفسى نكتا .

وفغرت فمى فى بله .. وهززت رأسى .. كان يجب علىّ أن أفهم هذا .. أجل .. ماذا كان يمكن أن يضحك جحا .. سوى أن يقص على نفسه نكتة .. ؟ ولكنى تذكرت الضيق والتبرم .. فعدت أسأل :

- ولكنى كنت أراك تتبرم أحيانا ؟

فنظر الىّ فى غيظ من غباوتى وأجاب :

- أجل .. عندما تكون النكتة قديمة .. سمعتها من قبل !

معه حق .. !!



من تحت لفوق

وأما من حيث النوع فبعد أن كانت السرقة سرقة المحتاج ، فقد أضحت السرقة سرقة الطامع الجشع .. لقد أضحت هواية .. لقد كانت الحاجة الى المسروق تكسر حدة الشر وتوجد للسارق عذرا .. أما الآن فقد أضحت السرقة .. سرقة صميمة وشرّا مركزا .

هنا السماء .

نحن الآن فى ركن الأبالسة .. ولكن خرب مقفر أشبه بالطل البالى .. محاط بحديقة صفراء ذابلة مليئة بالصبار الشائك والفروع الجافة والأوراق المتساقطة وأكوام الحجارة والأتربة .

تحيط بالمكان جحور أشبه بالمخابىء ، وضعت على أبوابها لافتات خشبية تبين أسماء المصالح المختلفة فى ركن الأبالسة قد كتب عليها : «مصلحة السرقة» ، «مصلحة الخمر» ، «مصلحة الميسر» ، «مصلحة الغش» ، «مصلحة الرشوة» الخ .. وعلى باب جحر يبدو أكبرها وأوسعها ، كتبت لافتة «مدير عموم الأبالسة .. الشهير بالشيطان الرجيم» .

وفى وسط هذه الجحور صخرة مستديرة أشبه بالمائدة ، وقد وضع فى منتصفها صحفة جمر عالى اللهب مستعر الأوار .

وحول المائدة رصت مقاعد صخرية مليئة بالنتوءات ، وبدا أحد الفراشين من الأبالسة يجهز المكان للاجتماع ، وقد أخذ ينثر الأتربة والأشواك على المقاعد ، ولايكاد ينتهى من عمله حتى يطلق من صدره زفرة حارة ، ثم ينزع عن رأسه القرنين المثبتين فوقه ، ويسحب قدميه من الحافرين المدسوسين فيهما ويحرك أصابع قدميه .. ثم يخاطب نفسه قائلا :

- اللهم تب علينا من القرون والحوافر .. اللهم ارحمنا من هذه السخافات .

ثم يبدأ فى الغناء منشدا أحد المواويل البلدية .

ولايكاد يبدأ الغناء حتى يسرع بوضع الحوافر فى قدميه والقرون على رأسه ، ثم يقف منتصب القامة ، مخفوض الهامة اذ يرى أحد أبواب الجحور تفتح ويخرج منها رئيس مصلحة السرقة .

يتقدم رئيس مصلحة السرقة فى خطوات متمهلة حتى يصل الى مقعده ويجلس عليه فى ثورة وهو يقرىء الفراش التحية بقوله :

- صباح الشر ياميهوب .

ويحنى «ميهوب» رأسه فى أدب شديد ويجيب :

- صباح السوء ياصاحب السفالة .

ويبدأ بعد ذلك توافد رؤساء المصالح الواحد تلو الآخر . فاذا ما انتظم عقدهم واستقروا فى أماكنهم ، هل مدير عموم الأبالسة فلا يكاد يقترب من المائدة حتى ينهض بقية الشياطين مرحبين .

ويجلس الفساد الأكبر متصدرا المائدة ويوزع التحيات ذات اليمين وذات اليسار ، ثم يقول :

- والآن لنبدأ العمل .. ماذا عندنا فى جدول الأعمال ؟

ويجيب سكرتير المجلس بفتح ملف أمامه ويأخذ فى سرد جدول الأعمال قائلا :

- ترقية ثمانية من مساعدة الأبالسة الى درجة ابليس .

- أعندهم كفاءة ؟

- لا .

- نزاهة ؟

- لا .. لا .

- أحلّ عليهم الدور ؟

- حاشا لله .

- ألهم صلة بمجلس الأبالسة ؟

- كلهم أقارب ، ومحاسيب .

- عال .. عال .. كل شروط الترقى متوفرة .. نوافق على الترقية .. بعده .

- احالة ثمانية من أعضاء مجلس الأبالسة ومديرى المصالح الى المعاش لما ثبت من اخفاقهم الشديد ، واعادتهم الى صفوف الملائكة لما تحقق لنا من تقصيرهم الشائن فى نشر الفساد .

تسمع همهمة بين مجلس الأبالسة وتعلو أصوات احتجاج خافتة من الأعضاء .

يضرب «سفالة الرئيس» المائدة بيده آمرا اياهم بالصمت قائلا فى لهجة تنم عن الخطورة :

- هذا الموضوع الذى نحن بصدده موضوع خطير للغاية . انه يهدد كياننا جميعا .. انه تقويض لبنيان الشر والفساد .. فيجب أن نعالجه بحزم وقسوة ، ويجب ألا نتردد فى الضرب على أيدى العابثين والمقصرين .. يجب ألا نجامل ولا نخجل .. يجب ألا نجامل ولا نخجل .. يجب أن نبتر العضو الصالح حتى ولو كان ذلك العضو هو أنا .

وصمت «الفساد الأكبر» ، وخيمت علي المكان سحب الجدية والخطورة .. وقطع رئيس الأبالسة صمته بقوله آمرا سكرتير المجلس :

- اقرأ ما عندك .

- تنذر الاحصائيات العامة للفساد بهبوط مستمر فى نسبة الفساد فى كل من مصالح السرقة ، والفسق ، والميسر ، والخمر ، والحشيش الى ٧٥٪ ، والمسؤول الأول عن هذا الهبوط هو مدير المصلحة .. فهو مسؤول أمام مجلس الأبالسة عن كل ما يخص مصلحته .

وتنحنح مدير مصلحة «الفسق» برهة وهمّ بالكلام ولكنه عاد الى الصمت حتى اضطر سفالة الرئيس الى أن يستحثه بقوله :

- ما قولك فى هذا ؟

- السبب واضح يا سفالة الرئيس ، لايحتاج الى تبيان .. لقد ألغى الفسق الرسمى .. بأمر عسكرى .

- وماذا فعلت أنت ازاء ذلك ؟ لماذا لم تقاوم ؟

- أقاوم من ؟ .. أصحاب اللحى والعمائم ؟ أو أصحاب الدولة والسعادة ؟ .. ولماذا لم تقاوم أنت ؟ ولماذا لم يتحرك المجلس كله وقتذاك ؟

وشعر «شيخ الأبالسة» بحرج شديد فلم يجد طريقة للتخلص من الحرج أفضل من أن يحول الحديث الى شيطان السرقة :

- وأنت .. ما سبب ذلك الهبوط عندك ؟

- لقد فعلت كل مافى وسعى ، وأغريت كل من استطعت بالفساد فى نطاق عملى .. وهم الآن فى السجون .. كلهم فى السجون .. قبض البوليس عليهم ، وحاكمهم القضاء ، وأغلقت عليهم السجون .. ماذا أستطيع أن أفعل الآن ؟ من أحض على السرقة ؟

وحك الرئيس رأسه وقال فى حيرة :

- هذه مشكلة .. لم نعمل لها حسابا .. على أية حال دعنا الآن منها .. سنشكل لجنة لبحثها .

ثم التفت الى شيطان «الميسر» وقال مؤنبا :

وأنت ؟ ما عذرك ؟

- عذرى ؟ .. الفقر يا صاحب السفالة .. بم تريد أن يلعب الناس الميسر ؟ .. بالطوب ؟ .. أو بالزلط ؟

- وأنت يا شيطان الخمر والحشيش ؟

- مثله .. زجاجة الويسكى أصبحت بكذا .. وفص الحشيش المغشوش أصبح بكيت .. والناس لاتملك لا كذا ولا كيت .

- وأنت يا شيطان الحب والهوى ؟

- لقد وضعت أصبعى فى الشق .. كلما أوقع اثنين فى الهوى يتزوجان .. لقد أصبح الزواج أرخص وأسهل من أى شىء فى الوجود .

- ما شاء الله .. اذاً فليس أمامنا الا أن نغلق المصلحة ، ونعلن عجزنا التام وفشلنا الذريع .

وساد الصمت الجميع .

ولأول مرة يتكلم «شيطان الخبث» بعد أن ظل طول الجلسة صامتا يرقب ويسمع ولاينبس ببنت شفة . قال موجها الحديث الى سفالة الرئيس :

- أنت وحدك الذى تملك الحل .

- كيف ؟

- تحدث انقلابا عاما شاملا ، وتبدل هذه الأساليب العتيقة التى تسير بها مصالحك .

ما هذا الخراب والفقر الذى نعيش فيه ، وماهذه القرون والحوافر .. هذه كلها أشياء عتيقة وأساليب بالية .. وأى أوساط سفلى تلك التى تصر على أن

ننفث فيها سمومنا ؟ انها لم تعد تصلح لنا ميدانا للعمل . دعنا منها .. فهى سبب بلائنا ونكبتنا .. حوّل جهودنا الى فوق .. فوق .. الى الطبقات العليا الكريمة .

– أى هراء هذا الذى تهذى به ؟ كيف نترك الطبقات الدنيا التى يسهل اغراؤها ونصعد الى الطبقات العليا الكريمة الأصيلة . كيف يمكن اغراء بنيها الذين نبتوا فى منابت العز .. والذين تحميهم دروع من التربية والأخلاق ؟

– آه منك ومن حسن نيتك ، اسمع نصحى وجرّب .. دعنا نصعد الى فوق .. دعنا نشم أنفاسنا .. ماذا عليك لو جرّبت .. لقد وصلنا الآن الى حالة يأس .. بعد أن نفدت كل وسائلنا مع الأوساط السفلى .. لقد دفعنا اليها كل ما استطعنا من الشر .. حتى تشبعت .. ولم يعد هناك لديهم طاقة لقبول أى كمية أخرى من الشر .. لأن طاقتهم محدودة .. فى كل شىء .. حتى فى الشر .. فلم نحاول مع الطبقة العليا .. الكريمة ؟ .. لم لا نجرب ؟

وتلفت «سفالة الرئيس» الى بقية الأعضاء وهز رأسه متسائلا :

– ما رأيكم ؟

وأجاب الأعضاء فى نفس واحد :

– لنجرّب .. ليس هناك من ضرر .

وفض الاجتماع واتجه كل منهم الى مصلحته .



هنا السماء .. مرة ثانية .

ونحن فى ركن الأبالسة .. بعد بضعة أشهر .

لا خراب ولا فقر ولا أشواك ولا أتربة ولا صبار .. بل صالة رحبة أنيقة فرشت بالسجاجيد وعلقت على جدرانها الصور الزيتية وتوسطتها مائدة وجيهة قد صفت حولها المقاعد وبدت فيها ردهات واسعة تفضى الى أبواب وضع فوقها مصابيح صغيرة حمراء كالتى توضع فوق مكاتب كبار الموظفين وعلى الأبواب لافتات براقة كتب عليها «مصلحة السرقة» ،

«مصلحة الرشوة» ، «مصلحة الميسر» الخ ، وبدت من خلال النوافذ حديقة غناء فيحاء .

وقد أخذ «ميهوب» يروح ويجيء في الصالة وقد ارتدى حلة أنيقة وأمسك بريشة خفيفة ينفض بها الغبار من الأثاث الفاخر وهو يصفر بفمه أحد ألحان «السامبا» .

وبعد لحظة قصيرة أخذ أعضاء «مجلس الأبالسة» يتوافدون الواحد بعد الآخر .. وليس عليهم من سمات الأبالسة شيء . لا قرون ولا ذيول ولا حوافر .

ولم يكد عقدهم ينتظم حتى أقبل «الشيطان الرجيم» أنيقا وجيها رشيقا حليق الذقن ، مبروم الشارب ، معطر الثياب ، يضع «منوكل» على أحد عينيه .

يلقي على الحاضرين تحية أرستقراطية من أنفه ، ثم يلتفت الى السكرتير ويقول له :

- اقرأ علينا جدول الأعمال يا حضرة السكرتير .

ويبدأ السكرتير في قراءة بعض الأعمال العادية من تنقلات وترقيات ، فلما ينتهي من سردها يفتح ملفا آخر ويأخذ في قراءته :

- هذه احصائيات الفساد الجديدة .. وهي تبرز لنا ارتفاعا عجيبا في نسبة الفساد .

- لنستعرض كل حالة على حدة .. لنبدأ بمصلحة السرقة .. ما آثار التجربة الجديدة يا صاحب اليد الطويلة ؟

- رائعة يا سفالة الرئيس .

- من حيث ؟

- من حيث الكم .. والنوع .. والضمان .. والاستمرار .

- أفصح .

- أما من حيث الكم .. فبعد أن كانت المسروقات بالملاليم والقروش أضحت بالجنيهات . وبعد أن كانت بالعشرات أضحت بالألوف والملايين ، وأما من حيث النوع فبعد أن كانت السرقة سرقة المحتاج فقد أضحت السرقة سرقة الطامع الجشع ، لقد أضحت هواية .. لقد كانت الحاجة الى المسروق تكسر حدة الشر وتوجد للسارق عذرا ، أما الآن فقد أضحت السرقة .. سرقة صميمة وشرّا مركزا .. وأما من حيث الضمان فقد باتت السرقة الكبيرة مأمونة العواقب سليمة النتائج .. وأما من حيث الاستمرار .. فان اللصوص الكبار .. أكبر من أن يزجوا في سجون .. فهم أبقى لنا .. وهم معين لاينضب ومورد لايكف .. حيًا الله الأوساط العليا والطبقات الكريمة .

- وأنت يا شيطان الفسق ؟

وقبل أن يجيب قبل يده وجها وظهرا وقال فى لهجة ملؤها الغبطة :

- رضا يا سفالة الرئيس .. ليس بالامكان خير مما كان . الجرسونيرات الفاخرة تملأ البلد .. وعين البوليس بصيرة ويده قصيرة ، مغلولة الى عنقها .. ورجال الدين يتمتمون ويبسملون ويحوقلون ويحمدون الله رب العالمين .. اللهم أدمها نعمة .

- وأنت يا شيطان الميسر ؟

- أنا ؟ ! حدّث عنى ولا حرج ، النقود تجرى فى أفخم الصالونات كالتبن .. لقد ذاع دائى واستشرى .. ليس هناك بصرة ولا عشرة طيبة .. بل بوكر .. بوكر وبكاراه .. وليس هناك ملاليم وقروش .. بل جنيهات تجرى غير مقطوعة ولا ممنوعة .

- وأنت يا شيطان الحشيش ؟

- فى كل يد حلوة .. وفم جميل أرستقراطى . لقد أصبح الحشيش موضة الأوساط الراقية الكريمة .. لم أعد أنزل الى الغرز والبؤرات .. بل صعدت الى فوق .. فوق .

وهز «شيطان الخبث» رأسه وقال :

- ألم أقل لكم ؟ ! ألم أنصحكم بالصعود الى فوق ؟ .. كلما صعدت السفالة الى فوق ، كلما قوى ذراعها واشتد ساعدها .

الوطن المحتضر

أداتهم اللسان .. وانتاجهم الكلام .. قديرون بلسانهم على احقاق الباطل وابطال الحق .. يدعون لأمر ، وبلا خجل ولا استحياء يدعون لنقيضه .

قال لى صاحبى متسائلا :
– ما بالك يا صاح تعيش فى الدنيا كأنك لست منها ؟

– كيف ؟

– أراك مغرقا فى أوهامك المعسولة .. ممعنا فى الكتابة عن الهوى والعشاق .. مرح الأحلام ، مترنم القلم ، شادى الفؤاد .. تغض الطرف عما حولك من مرير الحقائق والوقائع حتى ليخيل الى أنك لاتعيش فى أرضنا هذه .. أو أنك ثمل لاتحس ولاتفيق .. أو أنك لست منا ولايعنيك أمرنا .

بل أحس وأشعر وأتألم .. ولكنى أغض الطرف اغضاءة يائس وأتعزى بمعسول الأوهام عن مر الحقائق .. ان كلمات النصح لن تغير ما بقومى ، بل ستزيد النوّاح نائحا ، والباكين باكيا !! ولخير لقومى من نوح باك .. ترنم شاد .

– بل نوح باك خير وأجدى .. فالنائح خير مذكر بالمصاب «وذكر انما أنت مذكر».

– أذكر قوما أحياء فى وطن حى .. أما الموتى فى وطن يحتضر ، فماذا يجدى معهم ؟

- الى هذا الحد أنت يائس .. أما عاد يرجى لهذا الوطن خير .. وما عاد يفيد أهله نصح ولايردعهم نذير ؟

- لا أظن .. حتى ولو فعلنا بهم ما فعل حكيم «الوطن الميت» بأهله .

- حكيم «الوطن الميت» ؟ وماذا فعل هذا الحكيم بأهله ؟

- زعموا أنه كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان حكيم يعيش في بلدة عم فيها الفساد واستبد بأهلها الفقر والمسغبة والحرمان ، وانتشرت بها الأمراض والأوبئة ، وشاع فيها الجهل والتواكل والضعف ، وتلفت الحكيم حوله عله يجد من أهل البلدة فئة صالحة تعينه على أن ينقذ الوطن مما تردى فيه ويصلح حاله ويقيل عثرته ، ولكنه لم يجد سوى الاعراض من القوىّ والتخاذل من الضعيف .. ووجد سوس الفساد قد نخر فيهم جميعا .. فما ترك أذنا تصغى أو ذهنا يعى .

تلفت الى الحكام ، فاذا بهم فى شغل عن مصالح وطنهم بالعراك على حكمه والتسابق الى امتطاء صهوته ، والتدافع الى جنى ثمار سلطانه ، فلا يكادون يتربعون على دست الحكم حتى يذل الحرص أعناقهم ويعشى أبصارهم ويصم آذانهم ويضعف ذاكرتهم .. فهم لايبصرون ما كانوا يبصرونه ، ولا يسمعون ما كانوا يقولونه .. واذا بجهودهم قد تركزت فى التشبث بأعناق الحكم والالتصاق بصهوته .

مختلفون والهدف واحد .. مقتتلون والأمانى مشتركة .. يتهم كل منهم الآخر بما هو فيه ، ويعيب كل منهم على صاحبه ما سبق أن أتاه .

يعلنون ما لايبطنون .. ويقولون ما لا يفعلون .. يدّعون التسابق الى مصلحة البلد وهم الى مصالحهم أسبق .. ويدعون الحرص على انقاذ الفقير والعامل والفلاح وهم على ثرواتهم أحرص .

يطالبون بالحرية .. اذا ما أفادتهم الحرية .. ويقتلونها اذا ما كشفت عن سوءاتهم .

أداتهم اللسان .. وانتاجهم الكلام .. قديرون بلسانهم على احقاق الباطل وابطال الحق .. يدعون لأمر ، وبلا خجل ولا استحياء يدعون لنقيضه .

وتلفت الى العلماء ورجال الدين .. فاذا بهم أتباع جبناء أشبه بشرّابة الخرج .. سائرون فى مواكب الحكام .. محرقين البخور تحت أقدامهم .. فهم موظفون ميرى .. يحرصون على عيشهم أكثر من حرصهم على الدين .. قانعين راضين .. لايثورون الا بأمر الحكام ، ولايغضبون الا باشارة منهم ، ولايميزون بين الرذيلة والفضيلة الا بأعينهم .. فهم أسبق لنيل رضاء الحكام من نيل رضاء الله .

وتلفت الى الشباب فاذا به رقيع مخنث .. قليل الصلابة ضعيف الاحتمال ، لاصبر له على المكاره ولا جلد على المشاق .

والى الكتاب فاذا بهم أنانيون نفعيون منافقون .. لايحركون أقلامهم الا للاستجداء .. استجداء الحكام أو استجداء الجماهير .

والى الشعب فاذا به متخاذل متكاسل مغرق فى القذارة .. قذارة الخلق والجسد والثياب والدار .

وهكذا لم يجد الحكيم من حوله معينا .. بل كان الكل عونا فى الانهيار والتدهور وحليفا للعدو المثلث «الفقر والمرض والجهل»

وفى ذات يوم روع الناس بالحكيم يعدو فى الطرقات باكيا مولولا وقد شق ثيابه ، ولطم خديه ، وأخذ يصيح مستنجدا :

- آه .. آه .. الى ، الى ، النجدة ، النجده ، المعونة ، المعونة .. الغوث ، الغوث .

وأقبل عليه الناس يسألونه فى فزع وارتياع :

- ماذا بك ؟ ماذا أصابك ؟ قل .. أنطق .

واستمر الرجل فى عويله وبكائه حتى تكاكأت عليه البلدة وهو ممعن فى الصراخ والنواح ، واخيرا نجحوا فى تهدئته .. واخذوا يسألونه فى الحاح :

- قل لنا ماذا بك ؟ ماذا حدث أيها الشيخ العادل الحكيم ؟

- انه يموت .. انه يحتضر .. أدركوه ، أغيثوه .

- من هو ؟ من تعنى ؟

- الوطن ! الوطن يحتضر .. انه يلفظ آخر أنفاسه .. ان لم تنجدوه فعليه العفاء !!

وضج القوم بالضحك .. وهتفوا ساخرين :

- لقد جنّ الشيخ !

ثم صاحوا :

- عد الى بيتك واياك أن تقلقنا بمثل هذه الخزعبلات . أى وطن هذا الذى يحتضر ؟ أكل هذا الصراخ والبكاء لأجل هذه الأكذوبة .. والله لو عدت لمثلها أيها المخرف لجلدناك على سور البلدة .

وعاد الشيخ الى بيته باكيا حزينا وهو ما زال يصيح :

- آه .. آه .. الوطن يموت .. الوطن يحتضر ، أما من منجد ؟ ألا من مغيث ؟

وتفرّق أهل البلدة وعاد كل منهم الى عمله وهم يتندّرون بالحادثة ويروون خبر جنون حكيم البلدة .

وفى اليوم التالى فوجىء القوم بالحكيم يعدو فى الطرقات مرة أخرى .. ولقد اشتد بكاؤه وعلا نواحه وأخذ يصيح بصوت ملؤه الحزن والأسى :

- آه .. واحسرتاه .. واضيعتاه .. لقد مات الوطن ! لقد قتل شر قتلة .. واغتيل شر اغتيال .. أمسكوا القاتل . اقبضوا عليه .. لاتدعوه يفلت .. لابد من عقابه .. لقد قتل الوطن .. ولابد من الثأر له .. أمسكوا القاتل .. آه .. آه .

دعوه يذهب لدفنه ولاتعطلوه .. قل لنا : متى ستدفن الوطن حتى نسير فى جنازته ؟ وفى أى قبر ؟

وصاح الحكيم :

- ليس المهم دفنه .. المهم هو أن نقبض على القاتل .. أجل .. لابد من البحث عنه والعثور عليه وشنقه فى ساحة البلدة .

وهكذا انطلق الرجل فى البلدة يهيم على وجهه باحثا عن قاتل الوطن .. واعتاد الناس أن يبصروه فى كل يوم فى الطرقات وهو يصيح :

- القاتل الشرير .. سأقبض عليه .. لن يفلت منى .. سأنتقم للوطن .. سأردى القاتل وأمثل به وأعذبه عذابا لم يعذبه أحد .

ومضت بضعة أيام دون أن يبصر أحد من الناس للحكيم وجها ولم يعد يراه أحد يهيم فى الطرقات .. وأخذ الناس يتساءلون عن مصيره .. فمن قائل أنه هجر البلد .. ومن قائل انه قد مات .. حتى فوجىء الناس به ذات يوم وقد أقبل يعدو فى الطرقات وهو يثب فرحا ويرقص طربا ويصفق بيديه صائحا :

- أيها الناس أبشروا .. لقد وجدته .. لقد عثرت عليه .. القاتل الشرير .. لقد أمسكت بتلابيبه وضيقت عليه الخناق ولم أمكنه من الفرار . وبضربة واحدة انتقمت للوطن شر انتقام . لقد ثأرت لكم منه وقتلته شر قتلة .. لم أتوان عن ذلك لحظة واحدة خشية أن يتمكن من الفرار ويعاود فعلته .. انه مغامر شرير لا خلق له ولا كرامة .. انه مجرم سافل كذاب محتال .

واستمر القوم فى ضحكهم على الشيخ حتى صاح بهم رجل :

- من يدرى ! قد يكون الشيخ المجنون قتل انسانا كما يقول .. وقد يكون القتيل راح ضحية جنونه .

وأجابه آخر :

- لاتخف .. ان الرجل واهم .. انه لايجسر على قتل نملة .

وصاح الرجل مؤكدا :

- بل قتلته شر قتلة .. وليس أسهل علىّ من أن أثبت لكم ذلك .. لقد قتلته ووضعت جثته فى تابوت داخل البيت .. ويستطيع أى انسان منكم أن يأتى بنفسه ليشاهد قاتل الوطن قبل أن أواريه التراب .. انه عدوكم جميعا ولابد لكم أن تمتعوا أبصاركم بمشاهدة جثته مسجاة فى النعش .. هيا يا قوم ولا تترددوا .

وسرى الخبر فى البلدة سريان البرق .. وبلغ من بها من حكام وأهل علم ودين .. وعرف كل منهم أن الشيخ الحكيم قد قتل قاتل الوطن وأنه وضعه فى تابوت في بيته وأنه على استعداد لأن يريه لكل من يريد رؤيته .

وثار فى نفوس القوم حب الاستطلاع وصمم كل منهم على أن يرى جثة قاتل الوطن .. وبين عشية وضحاها كان أهل البلدة صغيرها وكبيرها وقفوا بباب الرجل يتزاحمون على رؤية القتيل القاتل .

ووقف الحكيم يصيح بهم :

- مهلا مهلا .. ما هذا التزاحم والضجيج ؟ قفوا صفوفا متراصة بعضكم وراء البعض .. سأريه لكم واحدا واحدا .. لن يحرم من رؤيته أحد .. ولكن لابد من النظام حتى تستطيعوا رؤيته كلكم .. أجل .. قفوا هكذا صفا واحدا .. لقد وضعت الجثة فى النعش داخل هذه الحجرة وعليكم أن تدخلوا بنظام واحدا وراء الآخر .. وتلقوا على القتيل نظرة وهو راقد فى نعشه ثم تخرجون من باب الحجرة الآخر وتذهبون فى سبيلكم .. فاهمون ؟

وصاح القوم : أجل .. أجل ..

وبدأ الطابور فى التحرك .. ودلف القوم الى الحجرة واحدا بعد الآخر .. ولم تمض لحظة واحدة حتى أخذوا يظهرون من الباب الآخر خارجين من الحجرة بعد مرورهم بالنعش .

ونظر الناس المتراصون خارج الحجرة والذين لم يأت دورهم للدخول الى وجوه الخارجين الذين رأوا القتيل فأدهشهم ما علاها من وجوم واطراق وحزن وأسف ، وأدهشهم قطرات العرق التى تتصبب منها ، وحاول بعضهم أن يسألهم عما رأوه وكيف وجدوا القتيل ومن هو ؟ ولكنهم لم ينبسوا ببنت شفة فقد كانوا ذاهلين عما حولهم شاردى الأذهان زائغى الأبصار يتعثرون فى مشيتهم وقد استغرقوا فى الصمت وبدا عليهم سيما خجل شديد .

وهكذا استمر الناس يخرجون من الحجرة وقد علت سيماهم علامات حزن والأسى والأسف وكسا وجوههم ذلك المظهر العجيب الذاهل الشارد .

وأخيرا مرّوا جميعهم بالنعش ولم يبق فى البلدة كبير ولا صغير الا وأبصر القتيل .. وخرجوا جميعا لاينبسون ببنت شفة ولايجسر أحدهم على أن ينظر فى وجه الآخر .

ومرت الأيام فاذا بالأعجوبة تحدث ، واذا بالوطن الميت يحيا ، واذا بالحكام يتحدون ويزهدون فى مظاهر الحكم وينسون المصالح الشخصية ويخلصون فى تصرفاتهم ويهدفون الى منفعة الوطن .. واذا الأغنياء يعطون الفقير ماله والمظلوم حقه .

واذا برجال الدين يتخلفون عن ركاب الحكم ويتعالون بأنفسهم ويتسامون فى تصرفاتهم ويعملون لوجه الله والدين والأخلاق لا لوجه الوظيفة وأكل العيش .

واذا الشباب الفاسد ينصلح ويرعوى ويشتد عوده ويصلب ويسير فى طريقه مؤديا عمله مخلصا لوطنه .

واذا الكتاب يصبحون غير مغرضين ولا أنانيين ويكتبون بما توحيه اليهم شجاعتهم ورأيهم دون أن يستجدوا أحدا .

واذا الشعب المتكاسل المتخاذل ينهض ويشتد وتزول من نفسه ومن جسده ومن ثيابه ومن داره القذارة التى لصقت به حتى أضحت شيئا منه .

واذا الركب كله يسير فى هدوء وسلام واطمئنان .. واذا بخيرات البلدة تكفى أهلها جميعا وتغمرهم بالهناء والنعيم .

★ ★ ★

وساد الصمت .. ورأيت صاحبى ينظر الىّ فى دهشة ويقول متسائلا :

- ولكن كيف حدث هذا ؟ ماذا رأى الناس فى التابوت حتى غيروا ما بنفوسهم ؟

- لا شىء .. لا شىء أبدا .. لقد كان التابوت فارغا .. كل ما فعله الرجل هو أن ألصق بقاعه مرآة .. فكلما أطل فيه انسان أبصر فيه صورته

وعرف أنه قاتل الوطن .. وأنه بالجزء الذى يقوم به من الفساد فى حُدود عمله قد قتل الوطن ، وأن الوطن لايموت الا اذا تعاون بنوه كلهم على قتله .. كل بما يعمل من شر مهما ضؤل .. فهو مسمار فى نعش الوطن .

وأطرق صاحبى برأسه مفكرا ثم قال بعد برهة :

- من يرزقنا بحكيم مثل هذا يرينا قاتل وطنه ؟

- لا فائدة .

- لم ؟!

- سيطل كل منا فى النعش ويخرج رافع الرأس .. فاذا ما سألوه عمن رأى .. ادعى انه أبصر صورة غيره .. نحن قوم متبجحون مدعون .. لانخجل ولانستحى.





وكان سعيدا ما دام لديه الصبر والايمان والجهد والمحبة .. فهو يستطيع أن يعاود البناء .. والبناء يمنحه الأمن والطمأنينة والاستقرار ..

ما الآخرة ؟

ما آخرة كل هذا الملل الطويل والسآمة القاتلة ؟

من المسؤول عن تبديد أسعد أيام حياته فى هذه الوحدة الموحشة بين الأسلاك الشائكة والبيوت الخشبية وأكواخ الصاج والرمال الملتهبة ؟

من المسؤول عن حرمانه فى تلك الفترة الطيبة من عمره من كل ما يمكن أن ينعم به بشر من استقرار وسلامة وحياة هادئة وادعة فى وطنه وبين أهله ؟

لمن ؟ ومن أجل من ؟

واندفعت الأسئلة تتواتر على ذهنه حائرة بلا اجابة ولا تعليل .

كان يقف أمام منضدة فى أحد الأكواخ الصاج المتناثرة فى أحد معسكرات القنال وقد أمسك بيده سكينا يقشر بها كوما من البطاطس ووضع جانبا سلاحه الذى أنقض ظهره مذ أعلنت حالة الطوارىء ، والذى لم يكن - بلا أى مبرر - يتركه فى كل غدوة وروحة .. وبجواره أخذت القزانات تئز

بمياهها التى تغلى فى جوفها والتى ألقى فيها بتعيين اللحوم الطازجة التى ترد اليه لطبخها .

وأطلق الرجل زفرة حارة وهو يشرد ببصره من النافذة الصغيرة المغطاه بسلك شبكى لصد هجمات الذباب .

ومن وراء النافذة أبصر عربة المتعهد تنزل صناديق المشروبات ولفائف البضائع ، وتجاوز بصره العربة فأبصر من ورائها الأسلاك الشائكة ممتدة الى مدى البصر ومن ورائها بدت داوريات الجند وقد قامت أشباحها فى الأفق تعترض طريق المارة والعربات من الأهلين لتجرى تفتيشا مملا ثقيلا لا جدوى فيه ولا طائل تحته .. وتذكر شكوى زميل له فى احدى تلك الداوزيات من أن الحالة قد انقلبت فأضحت عملية التفتيش أكثر ازعاجا لهم منها للأهلين ، ووصف له كيف يسخرون منهم فيملأون اللوريات بالصبية اللاهين ويجعلونهم يعبرون الطريق ذهابا وايابا حتى يرهقوا الداوريات فى تفتيشهم ولا يتركوا لهم فترة راحة فى الشمس المحرقة .. والداوريات مضطرة للتفتيش كالأوامر رغم معرفتهم أن هؤلاء يعبثون بهم وأنهم سبق أن مروا بهم ذهابا وايابا .. وهكذا انقلبت الآية فأضحت الاجراءات المهددة مصدر ازعاج للجنود لا للأهلين .

وضحك الرجل فى سخرية ضحكة قصيرة ما لبث حتى انقشعت عن وجهه آثارها وحلت محلها سحب الضيق واليأس والملل ، وعاودته أسئلته الحائرة التى لا تدأب تطن فى أذنه ، ثم شرد به الذهن الى الماضى البعيد عله واجد به ما يجتره من ذكريات تعينه على مسغبة حاضره ..

تذكر حبه منذ سنوات عديدة .. سقى الله أيامه ورعى عهده .. كانت أياما عزيزة آمنة ناعمة .. كان يحيا بها كما يريده الله أن يحيا .. كانت له حبيبة .. وكان بينهما لقاء .. وكانت تجمعهما نزهات بريئة ممتعة .. تتشابك فيها الأيدى وتتلامس الشفاه .. كان ينعم بأشياء كثيرة .. يعتقد أن الله قد خلقها لكى ينعم بها ابن آدم .

وقد تزوّج فى يوم جميل .. وهو يذكر الحفل البهيج المتواضع .. وأضحى له بيت ليس على كثير من الفخامة .. ولكنه كان نظيفا هادئا مرتبا ،

وكان يشعر بكثير من طمأنينة وهدوء عند الأوبة اليه والانطواء بين جدرانه برفقة المخلوقة الطيبة الجميلة التى ترعاه .

كل هذا كان له .. ولم يكن بالمحسود عليه فقد كان شيئا طبيعيا ، يكاد يتمتع به كل الناس .. اذ كانت تلك هى طبيعة الحياة .. كما أرادها الله لخلقه .

ومع ذلك لم تدم النعمة .. لقد أبى الخلق ما أراد الله لهم ، وهو لا يذكر أنه تضايق كثيرا وقتذاك وهو يرتدى حلة الجندية ويغادر أرض الوطن مع أفواج الجنود الراحلين الى حيث لايدرى .

حقيقة أنه أحس بلوعة وهو يفارق زوجه ويهجر داره .

ولكن خفف من لوعته أنه يؤدى - كما أفهموه - واجبا نحو وطنه . وأن غيبته كانت الى حين .. سرعان ما يعود بعدها الى بيته وقد أضحت حياته أكثر أمنا وعيشة أوسع رزقا .

ولم يكن يفهم كثيرا من دقائق السياسة .. ولايعرف بالضبط ما دعا الى نشوب الحرب والى خلق العدوان والاقتتال ، ولكنه اقتنع مما سمع من خطب وأحاديث أنه لابد من الحرب للدفاع عن سلامة الامبراطورية وقهر أعدائها ، ولذا لم يضق ذرعا بالذهاب الى الحرب ، لقد كانت ضريبة لابد أن يؤدى قسطه منها .

وهو لايذكر كثيرا عن الحرب .. فقد كانت الفترة التى قضاها فعلا لحظة خاطفة سريعة مليئة بالخطوب والأحداث لم يكن لديه خلالها فرصة للتفكير أو الوعى أو التذكر .. وسرعان ما انتهت الفترة بالأسر .

وفى معسكرات الأسرى فى ألمانيا .. قضى بقية فترة الحرب .. خمس سنوات .. حتى أعلنت الهدنة .

خمس سنوات طوال قضاها بعيدا عن زوجته الحبيبة وعن بيته الآمن الهادىء .

وأخيرا انتهت الحرب ، وتنفس العالم الصعداء .. وكان هو أكثر الناس تنفسا وهو يحل عنه قيود الأسر ويقذف عن كتفيه حملا من الحرمان والبعد

والحنين أنقض ظهره ، ووجد نفسه أخيرا تتحرك به قدماه لتعبرا الحواجز الى الحرية وتقوداه الى أرض الوطن .. الى الأمل المفتقد .. الى الزوجة والبيت .

وغمرته فرحة العودة وفرط الشوق وطول الحنين .. وأحس السعادة المفرطة وهو يضم زوجته بين ذراعيه ، ويحس لهفتها عليه .

أجل .. أخيرا .. عاد .. وعاد كل شيء الى ما كان عليه . ولكن .. لا .. لقد عاد هو حقا .. ولكن لم يعد كل شيء الى ما كان عليه ، بل ما بقى شيء على ما كان عليه .

هذه الأطلال البالية .. والدمن العافية .. هذه الخرائب والأنقاض .. لم تكن هى الأصل الذى تركه .. لشد ما تغيرت الأمكنة وبدا عليها الوجوم والوحشة .

وهز رأسه ، وأدهشه أن يكون هذا هو نصيب المنتصر ، وأن يكون ذلك الحال من الخراب هو ثمن الحرب .. ثمن السنين التى أضاعها هو فى الأسر ، وثمن الأرواح التى بذلها سواه .

أو قد حارب هو من أجل الحصول على مثل هذه الحال ؟ أو كان يمكن أن يصابوا بأسوأ من هذا لو لم يحاربوا ؟

ورفع كتفيه فى حيرة .. انه على أية حال لايفهم كثيرا فى السياسة .. والساسة أدرى منه بمثل هذه الأشياء .

وعاد مرة أخرى الى حياته .. يحاول ثانية أن يعيدها الى حيث أرادها الله .. عمل وكد وربح وعودة الى الدار الآمنة وتنعم بنعم الله .

وكان سعيدا ما دام لديه الصبر والايمان والجهد والمحبة .. فهو يستطيع أن يعاود البناء .. والبناء يمنحه الأمن والطمأنينة والاستقرار .

ان كل شيء يمكن عمله ، ما دام يحيا فى ظل المحبة والسلام بعيدا عن قصف المدفع ، وصفير الرصاصة ، ودوى القنبلة .. وما دام قد أدى واجبه نحو الامبراطورية ، وأبعد عنها شبح الحرب وجعلها تستطيع أن تلعق جراحها فى هدوء وطمأنينة .

ولكن .. يبدو أن الامبراطورية الشقية ، كان بينها وبين مسألة الهدوء والطمأنينة ، تنافر شديد .. وفى نفس الوقت بينها وبين شبح الحرب تجاذب أشد .. وكان أشد ما يعيي تفكيره قدرة الساسة على تعقيد الأمور وتوتيرها ، وعلى خلق الأعداء والتحرش بهم ، بحيث تبدو الامبراطورية دائما وهى وشيكة دخول حرب .

ومرة أخرى .. وبلا أدنى سبب ولا مبرر .. لا حرب .. ولا ضرب .. ولا هجوم .. ولا دفاع .. وجد نفسه يشد رحاله ، ويشحن مع بقية القطيع .

مرة أخرى ترك زوجته .. وهجر بيته .. بلا حماس ولا اقتناع ولا مبادىء .. ورحل الى منطقة القنال .. أو الى ما يسمونه بالشريان الحيوى للامبراطورية التى لاتغرب عنها الشمس .

واستقر به الحال مرة أخرى داخل الأسوار .. ولكنه فى هذه المرة لم يكن أسيرا .. بل آسرا .. وكان الأسرى هم الاثنين وعشرين مليونا الذين يقطنون خارج الأسوار .

ومرّت به الأيام وهو فى حيرة من أمره .. وعندما كان يجلس ليفكر ويشرد ببصره الى الأسوار من وراء النافذة الشبكية .. كان يجد المسألة برمتها خرافة .. أشبه بالأساطير المتوارثة .

أول خرافة فى المسألة .. هى الامبراطورية التى لاتغرب عنها الشمس .. والخرافة الثانية هى الشريان الذى يربط الامبراطورية .. لأن شريان الخرافة خرافة .. والذى يربط الخرافات ببعضها لايزيد عن خرافة مثلها .. والدفاع عن الشريان بطبيعته خرافة .. وتشريد آلاف الجنود وصرف ملايين الجنيهات أشد خرافة .. ان ما وضعوه وما صنعوه فى المنطقة هو الذى جعل لها مثل هذه القيمة ولو تركوها لأصحابها ورحلوا عنها وأزالوا كل ما بها لأضحت غير ذات قيمة .

والخرافة الكبرى هى انهم يدافعون عن شىء لايريد أصحابه دفاعهم عنه .. وأنه اذا ما حدث هجوم سيكون من الطرفين ، من المعتدى الخارج ، ومن صاحب الأرض الداخل وأنه ليس هناك أبعث للهجوم والاعتداء من مجرد وجودهم .

ذلك ما كان يطوف بذهنه .. وهو يرى الكره العميق من الأهالى .. ويرى نفسه لا يأمن على روحه الا اذا سار مدججا بالسلاح .. لم يكن لديه أقل ايمان بسبب وجوده .

كانت حياته كريهة بغيضة .. كانت أبغض من حياة الأسر وآلم من حياة الحرب .. لقد كان فى معسكر الأسرى يعيش بأمل انتهاء الحرب .. كان يلوح له فى الأفق بارقة رجاء .

أما هنا فماذا يأمل ؟ ! أيأمل فى انتهاء السلم ؟ ! أيأمل فى ثورة الأهالى ؟

كانت الحرب تعزية عن آلامها وشرورها بسمو الهدف وطيبة المبادىء وحسن المآل .. أما هنا فأى تعزية يرجو ؟

انه يشعر عندما يصارح نفسه أن الأهداف السامية والمبادىء الطيبة لا ترجى الا بالقدر الذى يحقق المصلحة الخاصة ، وانها لاتطبق الا فى حدود معينة ، فاذا ما خرجت عن هذه الحدود أضحت أوهاما وأباطيل من خدع السياسة ووحى الدعاية .

لقد أحس بالمثل العليا التى كانت تعزيه عن آلام الحرب وأوجاع الأسر قد أضحت فى أسره الجديد مثلا سفلى .

والى متى كل هذا ؟ ! الى متى يضيع عمره فى أوهام الامبراطورية وسلامة الامبراطورية !!

والى متى يظل فى هذه الحياة العفنة المحاطة بأشواك الأسلاك وأشواك البغضاء من شعب ينظر اليهم نظرته الى لصوص قناصة .

الى متى يظل هكذا مغروسا فى حقل من الكراهية ؟

الى متى يظل سجينا فى هذا الكوخ الحار القذر لايكاد بصره ينفذ الى أبعد من حلقات النافذة الا ليقع على المنظر البغيض المتكرر ، عربة المتعهد تسلم البضاعة .. ووراءها الأسلاك ، ووراءها أشباح جنود أشبه بقطاع الطرق .

عزاء واحد هو الذى كان يحمل اليه السكينة بعد طول تخبط فى ظلمات اليأس .

وصورة واحدة هى التى كانت تبدو وراء كل ذلك فتمحو الأحزان وتبدد الآلام .

تلك هى صورة زوجته وذكراها .. والأمل فى العودة اليها .. انها ما زالت تنتظره .. كما انتظرته فى المرة الأولى .. وحيدة صامتة صابرة لا وليد يؤنس وحشتها ولا صديق يفك ضيقها .

هى وحدها عزاؤه .. وكل شىء الى النفاد مآله .. الا هى الباقية .. هذه الأيام القاسية لابد ماضية الى سبيلها .. وبعد ذلك العودة .. واللقاء ..

وأحس من ذكراها هدوءا ملأ نفسه .. وعندما عاد يتطلع من النافذة كانت صورتها تمحو كل ما عداها .. كانت تمحو عربة البقالة وكانت تمحو الأسلاك والداوريات .

شيئا واحدا لم تستطع محوه .. وهو جسد عامل البريد المتقدم نحو الكوخ .

انها لم تمحه .. لأنه يحمل جزءا منها .. أجل .

أجل .. انه لاشك يحمل اليه رسالة .. أو رسالتها هى بالذات .. فمن الذى يسأل عنه فى هذه الوحدة سواها .

واقترب عامل البريد .. وقبل أن يطرق الباب .. كان قد فتحه له ، ومد يده يتلقى الرسالة فى لهفة .

حمدا لله .. انه خطها .

وبأصابع متعجلة فض الرسالة .. وجلس فوق أحد الصناديق يقرأها .

ولم تكد عيناه تقعان على الأسطر الأولى حتى بدرت منه صيحة دهشة مليئة بالفرح ، وأحس بالدموع تملأ عينيه .. وترك يده تسقط بالرسالة فى حجره وتلاحقت أنفاسه .. وحاول جهده أن يتمالك نفسه .

وأخيرا أنعم الله عليه بطفل .. بعد هذه السنين الطويلة من الصبر .. رزقت زوجته بوليد يؤنس وحشتها . لابد أن يذهب ليراه .. ترى ما شبهه ؟ وماذا سمته ؟ ولكن ...

وأحس برجفة مفاجئة .. وكأن يدا تعتصر قلبه .
متى ولد ؟
أولد الآن فقط ؟
مستحيل .. لقد مضى عليه ما يربو على العام وهو بعيد عنها .
ربما تكون قد أنجبته منذ مدة ولم تنبئه الا الآن .
أجل .. أجل .. انه لابد أن يكون الآن طفلا ناميا .

ورفع الرسالة .. بيد مرتجفة وبعينين زائغتين أخذ يلتهم السطور التهاما .. ويتم ما قرأ :

«وأظن أنه لا فائدة هناك من محاولة اخفاء الأمر .. لقد استطعت أن أصبر خمس سنين طوالا .. كنت أحيا خلالها على أوهام لقائك وعلى ذكريات حبك .. أما الآن .. فقد بات الصبر متعذرا .. لقد تبددت الأوهام وامحت الذكريات .. وكل ما أرجوه منك الآن هو الانفصال .. ولست أظنه بالشيء المتعذر لأننا لن نفعل سوى أن نسمي الأشياء بمسمياتها .. لأننا منفصلان فعلا .. وانى أحس أنى سأكون أسعد حالا مع الشخص الآخر .. وأظن أنك لاتنكر علىّ بعض السعادة بعد طول الصبر والشقاء ، وأظنك كذلك لاتنكر لى حياة نظيفة أمام الناس بدلا من حياة قذرة فى الخفاء» .

وسقط الخطاب من يده .. وسقط معه العزاء الأخير .

وعندما رفع بصره لم يتخلل النافذة .. ولا أبصر عربة البقال ولا الأسلاك ولا داوريات الجنود .. ولكنه أبصر شيئا واحدا .. كان يملأ كل ناظريه .. وهو السلاح الذى كان يحمله فى كل غدوة وروحة .. والذى كان مفروضا أن توجه فوهته لأحد أولئك القابعين خارج الأسوار التى تفيض نفوسهم بالبغض والكراهية .

وأمسك الرجل بالسلاح وصوّب فوهته نحو رأسه وضغط على الزناد وهو يهتف لنفسه :
«أنا أولى بها ...» .
وانطلقت الرصاصة فاستقرت فى رأسه .
ونقص جنود الامبراطورية التى لا يغرب عنها الشمس .. واحدا .

ذاكرة لا تغفل

وانتظرته كثيرا .. كنت الانسان الوحيد الذى أفتقده .. والذى أحس غيبته .. والذى لم ييأس من عودته .. ولم يغفله من ذاكرته أبدا ..

انحدرت بنا العربة من النقب رقم ١٣ ، ولم يكن عبور النقب بالأمر الهين ولاسيما قبل أن تمتد اليه يد الاصلاح وقبل أن ينسف المهندسون العسكريون جوانبه ويدكون أرضه .

عبرنا النقب بسلام وتحركت بنا العربة فى الطريق الضيق الذى رسمته عجلات العربات بين الأعشاب والآكام ، وقد أخذت تعلو بنا وتهبط متأرجحة بين موجات الأرض كأنها زورق تتقاذفه الأنواء .

كان ذلك فى عام ١٩٣٩ وقد عسكرنا على المرتفعات المشرفة على الواحات البحرية بالقرب من النقب رقم ١٣ المؤدى الى الطريق الواصل الى سيوة ، وكان كل ما حولنا يبعث على الملل .. فقد سئمت نفوسنا صفرة الرمال والفراغ والوحدة .. ولم يكن هناك مايهيىء لنا بعض التسلية الا تلك الزيارات التى كنا نقوم بها من آن لآخر لرجال الحدود والمأمور فى استراحتهم فى بلدة الباويطى ، وهى مركز الواحات البحرية وأهم بلدانها ، والا تلك الجولات التى كنا نقوم بها داخل الباويطى والزبو ومنديشا فنبتاع منها بعض البرتقال والبلح .

ولم يكن هبوطنا من معسكرنا الى منخفض الواحات فى ذلك اليوم بقصد زيارة استراحة الحدود أو التجول فى احدى القرى .. وهما المتعتان الوحيدتان اللتان كان يمكن أن نباشرهما فى ذلك الوقت .. بل كان لأمر جديد لا أكتمكم القول أنه بعث فى نفوسنا غبطة وحبورا .

كنا فى طريقنا الى مسز أندروز .. ولست أشك أن كلمة – مسز – فى ذلك الوقت وفى ذلك المكان كانت من خير الكلمات التى تقع فى النفس موقعا حسنا وترن فى الأذن رنينا موسيقيا .

كان وجود «مسز أندروز» فى الواحات البحرية أمرا عجيبا ، ولاسيما اذا ما علمنا أنها قد استوطنت وزوجها الواحات منذ مدة ليست بالقصيرة وأنهما يقطنان فى دار قد شيدت فوق الجبال المسماة جبال منديشا .

ومع ذلك فلست أظن وجود الزوجين فى مثل هذا المكان هو الحدث الأول من نوعه .. فقد سمعت من قبل عن غيرهما من المستشرقين الذين يقطنون الصحارى المصرية .. ويستوطنون فيها ويجعلون منها مأواهم حتى آخر العمر .. بل انى قد زرت من قبل رجلا يدعى «براملى» يقطن هو وزوجته وابنته فى بيت فى جوف الصحراء على مقربة من برج العرب ووجدت الدار من الداخل والخارج ، آية فى الفخامة والجمال .

وقد وقع بصرى على «مسز أندروز» أول مرة عندما صعدنا لمشاهدة جبل منديشا وتسلقنا الصخور المؤدية الى المواقع التى كان يحتلها السنوسيون عندما استولوا على الواحات فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٧ .

وشاهدنا دار «أندروز» المبنية من الصخور السوداء المقطوعة من الجبل نفسه وأخذنا نطوف حولها ، وكانت الدار فى الواقع على شىء من الروعة .. زاد من تأثيرها الجو المحيط بها والموقع المشيدة عليه .

لست أدرى اذا كانت السيدة ربة البيت أحست بوقع أقدامنا فهبطت الينا لتتبين من نكون ، أم أن خروجها من الدار كان محض صدفة .

على أية حال لقد وجدنا باب البيت يفتح ولمحنا السيدة تواجهنا وقد

ارتسمت على وجهها ابتسامة رقيقة وأشارت لنا برأسها محيية ، فأجبنا التحية ، وتقدمنا اليها مصافحين .

كانت السيدة فى العقد الرابع من عمرها لم تحاول أن تستر بالأصباغ ذلك الشيب الذى وخط رأسها ، وحسنا فعلت .. فلقد منحها الشيب وقارا جميلا .. أو جمالا وقورا ، اذ لم يكن جمالها من نوع سريع الأفول .. بل كان جمالا يتعذر على السنين أن تنال منه ، وحتى لو استطاعت أن تنال منه .. فان آثاره وبقاياه كانت كافية لأن تعلن لك : أن المرأة كانت ساحرة فاتنة ، وكان جسدها على شىء من الضآلة والنحول ، الذى يبديه قويا متماسكا بلا استرخاء ولا ترهل .

ولا أظن هناك خير ما ألخص به وصف المرأة من أنها كانت - رغم يقين الناظر اليها ، من أنها قد بلغت الأربعين ، أو جاوزتها - ذات رقة تسبى ، ولطف يأسر .. وأن الانسان لايستطيع الا أن يحس رغبة فى الجلوس اليها ، والحديث معها .

أم ترانى كنت واهما .. ؟ وأن طول حرماننا من رؤية نساء متمدينات ، متعطرات ، متأنقات ، كان هو سبب اعجابى بالمرأة .. وأنها لم تكن أكثر من كعكة فى يد اليتيم - والكعكة فى يد اليتيم عجبة - !!

قد .. وقد .. فانى لا أكتمكم القول ، أننا فى تلك الفترات التى كان يطول بنا البقاء خلالها فى الصحراء .. كان مجرد رؤيتنا لثوب ملون .. يبعث فى نفوسنا نشوة ، ويملؤنا طربا .

دعتنا المرأة الى التفضل بزيارة دارها .. ولكن موعد عودتنا كان قد أزف ، ولم يكن لدينا من وقتنا فسحة تهيىء لنا مجالسة السيدة ومشاهدة دارها ، فاعتذرنا عن الدخول ، واعدين اياها أن نعود فى الغد ، لنتناول معها الشاى فى الساعة الخامسة .

لبينا الدعوة مرحبين وعدنا فى اليوم التالى .. ووقفت العربة أمام سفح الجبل وقفزنا منها أنا ورفيقى .. وأخذنا نتسلق الجبل ، وبعد دقائق كنا واقفين أمام الدار نطرق بابها .

وفتح الباب خادم من أهل الواحة ، وقادنا الى حجرة الجلوس وجلست وصاحبى نقلب البصر فيما حولنا ، مأخوذين بجمال الرياش وحسن تنسيقه .. وبعد لحظات أقبلت السيدة وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث حتى أحضر الخادم الشاى ، فأخذنا فى احتسائه .

وكان ذهنى يشرد من حين لآخر فى سؤال حيره : أين مستر أندروز ؟

لقد فهمت من المأمور : أن الرجل يقطن مع امرأته فى الدار .. ومع ذلك فاننا لم نصادفه فى المرة السابقة .. ولم يخف لاستقبالنا مع زوجته فى هذه المرة .

وكنت أتوقع أن يحضر الينا بين آونة وأخرى ، ولكن الوقت مرّ ، وطال بنا الحديث .. وبدأنا نتأهب للانصراف ولا أثر للرجل فى الدار .

وقبل أن ننصرف جالت السيدة بنا فى حجرات الدار .. وتملكنا العجب مما شاهدنا .. فقد كانت الدار أشبه بمتحف ، ملئت جدرانه بمختلف أنواع الحيوانات المحنطة ، وأسلحة الصيد ، والصور الزيتية الرائعة ، والتماثيل الدقيقة .

ووقفنا أمام دهليز طويل مظلم ، يؤدى الى باب مغلق .. وأشارت السيدة الى الباب قائلة :

- هذه حجرة مكتب زوجى .. انى شديدة الأسف لأنه لم يخرج للقائكما ، فهو منهمك هذه الأيام فى كتابة مذكرات له .. وهو دائم الخلو بنفسه .. حتى لايزعجه أحد ، ويقطع عليه حبل أفكاره .

وتمتمنا ببضع كلمات نقبل بها اعتذار المرأة .. ولم يكن هنا أسهل من قبوله .. فما كان بنا كثير شوق الى لقاء الرجل .

وترددنا بعد ذلك على السيدة بضع مرات فى أوقات متفاوتة فقد وجدنا فيها كما وجدت فينا : كثيرا من التسلية .. والواقع أنها كانت محدثة ماهرة .. وكانت دائما تملك ناصية الحديث ، فقد كانت أقاصيصها لاتنفد .. وكانت تبدو لنا كلها واقعية ، لا أثر فيها للخيال .

وفى كل تلك المرات التى ترددنا فيها على السيدة لم يبد لنا زوجها .. اللهم الا ذبالة تتراقص في حجرته من وراء النافذة ، فتفيض علينا جوا رهيبا ، موحشا ، وتوحى الينا بأن الحجرة مليئة بالأشباح والأرواح .. وأن الرجل المختفى بها ساحر يحرق من حوله البخور ، ويحضر الجن ، والشياطين .

وفى ذات يوم دعتنا السيدة لتناول العشاء .. وذهبنا اليها قبل الغسق ، وجلسنا فى شرفة الدار الرحبة .. نرقب الغروب ، وتمدد ثلاثتنا على مقاعد طويلة وشغلنا عن الحديث بمراقبة القرص الأحمر ينزلق ببطء وراء الأفق مخلفا وراءه حواشى وذيولا من الشفق الأحمر .

وسحرنا المنظر المحيط بجماله .. وبدا لنا كلوحة أبدعتها ريشة فنان .. وهل هناك أبدع وأروع من فن الخالق ، وسحر الطبيعة ؟ ..

بدت الواحة منبسطة أمامنا .. وقد قامت فى ركن منها بلدة الباويطى ، واختفت أكواخها المتواضعة ، خلف نخيلها الباسق ، وأشجارها الكثة الداكنة ، وبدا العرب عائدين بحميرهم العجفاء ، وقد وضعوا عليها زنابيل العجوة .. وفى الناحية الأخرى : بدت غرود الرمال الناعمة ، القائمة فى الطريق الى الربو ، وقد ظهرت عليها آثار أقدام الرجال والجمال ، واضحة جلية .. وخاصة بغد أن انعكست عليها أشعة الشمس المنزلقة ، فتركت لها ظلالا طويلة داكنة .

وتناثرت فى الأفق المرتفعات بمختلف الاشكال والأحجام والألوان ، ففي أقصى اليمين بدا المرتفع المخروطى الأسود وفى الوسط قامت تلك القباب المستديرة الصفراء ، وفى اليسار بدا جبل آخر كأنه رأس أبى الهول .

وهوى القرص الأحمر ، وهوت من بعده ذيوله وحواشيه وأخذت الظلمة تتسرب رويدا رويدا .. كأنها اللص يسترق الخطأ ، أو النوم يتسلل الى الجفون .. حتى أحسسنا فجأة أن الليل قد أقبل ، وأن النهار قد ولى .

وأخيرا تحدث صاحبى فقال للسيدة :

– لقد سلبنا الغروب متعة حديثك .. وأغرقنا فى صمت عميق .. والآن هات بعض أقاصيصك الممتعة .

وضحكت السيدة ، ومدت يدها الى صندوق سجائرها فتناولت واحدة ، وأعطت صاحبى واحدة .. وأشعل صاحبى سيجارتها وسيجارته .. وأخذت أرقب السيجارتين المشتعلتين فى الظلمة .

وبدأت السيدة حديثها قائلة :

- لا أظن أنكما قد سمعتما عن جالن .

وصمتت برهة حتى تتلقى جوابا بالموافقة .. ولكننى لم أتكلم ، فما كنت أعرف من يكون «جالن» هذا .. وشعرت بخجل من جهلى ، وتمنيت لو أن صاحبى كان يعرفه حتى لانظهر أمام السيدة بهذا الجهل .. ولكنه لم يتكلم هو الآخر .. وأخيرا عاودت السيدة حديثها :

- حسنا .. ان هذا سيجعل مهمتى أكثر صعوبة .. كان جالن من كبار المكتشفين الذين اكتشفوا مجاهل أفريقية ، وكان صاحب النظرية القائلة بأن حملات الاكتشاف الصغيرة التى لا تحمل من المهمات والأمتعة ما يثقل حركتها ، أفضل كثيرا فى أعمال الكشف من تلك الحملات الضخمة التى تثقل نفسها بأثقال من المؤن والتوابع .

قام جالن بآخر رحلاته منذ بضعة أعوام فى أوائل الصيف مصطحبا معه زميلا له يدعى هيلز فى مثل شدته وحنكته . وكان فى رفقتهما اثنان من المواطنين السود .. وكان غرضه من الرحلة هو عبور بعض مناطق لم تكتشف بعد فى اتجاه الشمال الغربى من أوغنده .

وكانت المنطقة التى ينويان عبورها منطقة جرداء لا أثر بها للحياة ، أو على الأقل هكذا كانت تبدو على الخريطة ، رغم أن الأقاصيص كانت تقول انها نقطة آهلة عامرة ، يقطنها قوم لم يستطع أن يصل اليهم مخلوق على قيد الحياة .. وكان هناك من الأدلة ما يثبت صحة هذه الأقاصيص .. فمنذ ما يقرب من عامين قبل بدء الرحلة ، التقى جالن فى احدى رحلاته التى كان يحاول فيها اختراق المنطقة بأحد المواطنين الذى أراه بضع قطع من العملة الذهبية ، وخاتما فضيا ركب فيه فص من حجر أخضر داكن لم يستطع جالن أن يميز كنهه .

وعندما سأل الرجل عن مصدر القطع الذهبية والخاتم أنبأه أنه قد عثر عليها منذ سنوات فى أحد الجبال الكائنة فى اتجاه الغرب ، ولم يرد الرجل أن يعطيه القطع الذهبية ، ولكنه تنازل له عن الخاتم فى لقاء بعض الخرز والحلى .

ومنذ ذلك اليوم والخاتم لايفارق أصبعه ، وقد أخذت رغبته تزداد فى عبور المنطقة ، واكتشاف المدينة ، حتى كان ذلك اليوم الذى بدأ فيه رحلته فعلا .

بدأ الأربعة الرجال رحلتهم وحلكة الظلام لم تنقشع بعد ، وسار الرجلان الأبيضان يتبعهما التابعان ، وقد حملا أخف ما يمكن حمله من الزاد والمؤن والأمتعة .. وعندما قطعا من رحلتهما ستين ميلا عاد التابعان . واستمر الرجلان فى سيرهما وحيدين .

لم تكن هناك أنهار معروفة فى تلك المنطقة ، ولكن الرجلين العائدين كانا يحملان رسالة من جالن بأنه يتبع فى سيره نهرا صغيرا يجرى فى اتجاه الغرب .

مضت أيام وأسابيع وأشهر ، وما من نبأ عن الراحلين ، وأرسلت فى أثرهما قافلة للبحث عنهما ، وقادها التابعان الى النقطة التى تركا عندها الرجلين .. وقضت القافلة بضعة أسابيع فى البحث والتنقيب ، ثم عادت أدراجها دون أن تعثر لهما على أثر ، ومنذ ذاك الوقت لم تبصرهما عين ولا سمعت عنهما أذن .

ولست أشك فى أن خاتمة جالن بهذه الكيفية لاتبدو الا أمرا طبيعيا ، فما كانت ترجى لمغامر مثله دأب على أن يلقى بنفسه الى التهلكة سوى هذه الخاتمة .. ولقد تقبل الناس نبأ اختفائه ببساطة كأنه شىء كان لابد من حدوثه .. ولا أظن أن هناك مخلوقا قد افتقده ، أو أحس بغيابه .. اللهم الا مخلوق واحد .

كان هذا المخلوق الذى افتقد جالن .. هو أنا .

لا أريد أن أندفع فى تحليل مشاعر .. أو وصف أحزان وأشجان .. فتلك أشياء مضت .. سلبها الزمن جدتها ، فلم يبق منها الا ذكريات باهتة شاحبة ،

كنت فى ذلك الوقت أعيش فى أوغندة حيث كان والدى يقوم بالتبشير فى مجاهل أفريقية ، والتقيت بجالن لأول مرّة قبل أن يبدأ رحلته الأخيرة ببضعة أشهر .

كان مخلوقا عجيبا .. أشبه بأبطال الأساطير .. كان جميل النفس والقلب والوجه والجسد .. فسرعان ما أحببته .. ولست أدرى ما اذا كان قد أحبنى لأنى كنت المرأة الوحيدة التى يستطيع أن يحبها وقتذاك .. أم أنه قد أحبنى لفضل فىّ وميزة بى ؟ !

ولكن الذى كنت موقنة به هو أنه أحبنى كما أحببته .. واتفقنا على الزواج بعد أن يرجع من رحلته .

وانتظرته كثيرا .. كنت الانسان الوحيد الذى أفتقده .. والذى أحس غيبته .. والذى لم ييأس من عودته .. ولم يغفله من ذاكرته أبدا .

وأيقن الناس أن جالن وصاحبه قد ماتا .. حتى بدأت الاشاعات تزعزع ذلك اليقين .. فلقد صادف بعض منهم بعض الرجال السود الذين أنبأوهم بأنهم صادفوا آخرين أنبأوهم بأنهم سمعوا أن هناك من رأى رجلين من البيض يسيران فى الأدغال .

لقد كانت هناك دائما اشاعات تغذى النفس الساغبة وتحيى فيها موات الأمل ، كانت الاشاعات لاتكف أبدا ، هذا سمع من هذا الذى سمع من ذاك الذى صادف هؤلاء الذين التقوا بأولئك .. وهكذا دائما .

ومضى عام دون أن يعتبر الراحلان قد ماتا رسميا .. حتى تواترت بعض الأدلة التى استطاعت أن تثبت شيئا حقيقيا عنهما .

كان أحد الرجال البيض يبحر للصيد فى أحد الأنهار فعثر على رجل من المواطنين أثبت أنه قد رأى جالن وصاحبه بعد أسبوعين من اختفائهما .

قال الرجل أنه رأى هيلز الذى وصفه بأنه الرجل الأشقر . - كان هيلز أشقر الشعر ، وكان جالن أسوده - مصابا بعرج شديد ناتج عن تسمم جرح فى ساقه ، وأنهما سارا فى اتجاه الشمال الغربى رغم أن الطريق كان من المستحيل عبوره .

ثم قال انه سمع من بعض رجال القبائل المجاورة بأن هيلز قد مات بعد يومين ، وأن جالن قد عاود السير فى طريقه وحيدا .

وعندما سئل الرجل أن يصف جالن قال : انه يلبس فى أحد أصابعه خاتما فضيا ذا حجر أخضر .

فلوكانت رواية الرجل صحيحة فان جالن يكون قدشوهد آخر مرة فى البقعة التى مات فيها صاحبه ، وهى تبعد حوالى مائة ميل عن أحد الأنهار ، وكان يقال ان القبائل التى تسكن شمال هذه المنطقة قبائل متوحشة ، ومن المستحيل أن يكون جالن نجا من براثنها اذا كان قد حاول عبور المنطقة .

ومع ذلك فقد قامت حملة للبحث عنه ، واستطاعت الوصول الى النقطة التى مات فيها هيلز وعثرت على ما أثبت وفاته ، وأكد صحة قول الرجل .

ونجحت الحملة فى التقدم بعد ذلك ما يقرب من ثلاثين أو أربعين ميلا فى طريق شديد الوعورة ، واستمرت فى تقدمها حتى تعذر عليها السير ، فاضطرت الى العودة دون أن تعثر على أى أثر لجالن .

ولم يكن هناك شك فى أن هذه الحملة مجهزة خيرا من جالن وأنه لايمكن أن يكون قد استطاع التقدم حيث تعذر عليها هى التقدم .

وكانت كل الدلائل تجزم بأن الرجل يستحيل عليه أن يكون قد عبر المنطقة واستطاع الوصول الى النهر الكائن فى الشمال الغربى ، وعلى ذلك فقد اعتبروه - رسميا - ضمن الوفيات .

وهكذا انتهى جالن .. ولم يعد ثمة شك فى وفاته .. حتى الاشاعات نفسها قد كفت عن ذكره .. فما عاد أحد يقول أنه رأى من سمع أنه رأى من رآه .. وتزوجت أنا فى ذلك الوقت زوجى الأول .. وهو رحال يدعى أشلى وكان صديقا لجالن .

وجلسنا ذات يوم نتحدث عن الرجل المفقود فأنبأنى أنه يتمنى لو استطاع أن يكشف سر اختفائه ، وأنه يود أن يقوم برحلة لتتبع آثاره .

وظلت الفكرة تساور نفسه بعد ذاك حتى استيقظ ذات صباح فأخبرنى أنه قد نوى أن يقوم بالرحلة .. لأن هناك فكرة جديدة طرأت على ذهنه ..

قال أشلى : ان جالن ربما يكون قد استعصى عليه السير فى اتجاه الشمال الغربى .. فاتجه الى الجنوب الغربى قاصدا احدى القرى الكائنة على مسيرة مائة وخمسين ميلا .. وأن اختفاءه لاشك كان فى هذا الطريق .

وكانت خطة أشلى هى أن يبدأ السير من النقطة التى توفى هيلز عندها مخترقا الأدغال متجها الى الجنوب الغربى بقصد الوصول الى القرية .. وكان علىّ أن أذهب الى القرية رأسا بطريق النهر ، وهو طريق سهل يقودنى من سكننا الى القرية المذكورة دون أية مشقة .. وكان علىّ أن أنتظره فى القرية حتى تاريخ معين ، فان لم يصل فى هذا التاريخ أبدأ البحث عنه .

وبدأ زوجى رحلته مصطحبا اثنين من المواطنين ، وتحركت أنا الى القرية وفى رفقتى اثنان مثلهما .

ووصلت الى القرية أخيرا بعد عشرة أيام قضينا معظمها متحركين فى النهر ، ووجدت القرية لاتزيد على بضعة أكواخ تحيطها الأدغال الكثيفة . ووجدت فى ناحية منها منشأة أقامها البيض لتعليم المواطنين .

وكانت مكونة من جناحين : جناح به المدرسة والكنيسة وجناح به بعض حجرات أعدت للسكنى .

كان المكان يبدو رهيبا ، وقد أحاطته الأدغال من كل جانب .. وكانت المنشأة تبدو خربة موحشة بجدرانها التى كانت بيضاء فيما مضى من الزمن ، ثم حطت عليها الأتربة ، وخيمت العناكب ، ولم تكن المساكن التى بها تبدو مساكن أحياء ، بل أجداث أموات .

لقيت عمدة القرية وأنبأته بما قد أتيت لأجله فرحب بى وقادنى الى احدى الحجرات فوجدتها خالية الا من عنجريب للرقاد ، وخزنة خشبية لوضع الأمتعة .. وتملكتنى رهبة وخشية وأنا أطوف ببقية الحجرات المهجورة الخالية ، حتى وقفت أمام حجرة مغلقة ، وأنبأنى الرجل أنها حجرة حارس المنشأة ..

ورويدا رويدا بدأت أتعوّد المكان وتبددت من نفسى الخشية وانقشعت الرهبة .. ومضى اليوم دون أن أبصر الحارس ، فقد قيل لى انه غائب فى قضاء حاجة .

وذهبت الى الفراش وأصابنى أرق فى مبدأ الأمر ، ولكن تعب الرحيل سرعان ما تغلب عليه .. ولم أستيقظ فى الصباح الا والشمس قد تسللت من النافذة الضيقة ، وغمرت أرض الحجرة ،

نظرت من النافذة فكان أول ما وقع عليه بصرى هو حارس المكان .. كان كهلا أشيب الشعر أشعثه ، لايستطيع الانسان أن يميز تقاطيع وجهه وسط ذلك الكوم - الهائش - من شعره المسترسل ولحيته المطلقة .

وكان يرتدى ثياب المواطنين وان كنت قد استطعت الجزم أنه ليس منهم .. فقد كان جسده أسمر لوّحته الشمس ، وكانت هيأته توحى بأنه أوروبى استوطن المكان منذ زمن طويل .

وعندما تحرك الرجل وجدت باحدى ساقيه عرجا وأحسست بدافع قوى يدفعنى الى أن أهبط من حجرتى .. وأن أقترب للتحقق منه .

ولم تمض لحظة حتى كنت أقف أمامه ، وتأملت وجهه مليا .

وأحسست برجفة تسرى فى بدنى ، وعلت عينىّ غشاوة ، ومددت يدى لتحيته ، فمد الى يدا قد وضع فى احدى أصابعها الخاتم ذا الحجر الأخضر .

وهتفت فى صوت مبحوح :

- جالن ؟ ..

ولكن الرجل رفع حاجبيه فى دهشة وتمتم معتذرا :

- آسف ياسيدتى .. انى أدعى جيم ..

هكذا أجابنى الرجل .. ومع ذلك فانى كنت واثقة من أنه لايمكن أن يكون سوى جالن .

لم يكن من المستحيل أن يكون جالن قد وصل الى هذا المكان ، ولم يكن أهل هذه الناحية قد سمعوا من قبل عن جالن .. فقد كانت المواصلات بيننا تكاد تكون معدومة .. وحاولت أن أتفاهم مع الرجل الذى أنكر نفسه ، والذى بدا راغبا عن الحديث معى ، كارها للقائى ، وسرعان ما رفع يده بالتحية .. ثم أعطانى ظهره وانصرف .

واستمر الرجل ينأى بنفسه ، وحاولت أن أستفسر عنه من بعض المواطنين ، فأجابونى بأنهم أبصروه أول مرة آتيا من ناحية الغرب ، ووصفوا لى كيف وجدوه يزحف بين الأدغال على قوائمه الأربع وقد تملكه الاعياء ، حتى أفقده القدرة على النطق والتفكير ، وحملوه بين أيديهم كأنه خرقة بالية ، أو كوم من العظام .

ومرت بضعة أيام حتى بدأ الرجل يتمالك وعيه .. ويستعيد قواه ، ويصبح كائنا حيا .. ولكنه لم يكن يعرف نفسه ، أو يذكر من أين أتى ، والى أين يذهب .. وكان يشعر بخوف شديد من الأدغال .. ولا يجسر على الاقتراب منها .. واستمر مستوطنا فى القرية لم يفارقها حتى ذاك الوقت .

ولم أشك مما قيل لى أن الرجل هو جالن نفسه ، وأنه لم يصل الى القرية الا بعد أن أوشك على الانتهاء .. وأن ما لاقاه من مشاق فى السير والجوع والعطش قد أفقده عقله ، وأصابه بذعر شديد من الأدغال .

ولم أعدم بعد ذلك الوسائل التى استدرجت الرجل بها الى مجالستى .. وحاولت جهدى أن أزيل بعض السحب التى تخيم على ذهنه ، وأن أعيد اليه شيئا من ذاكرته الضائعة ، وحاولت أن أتحدث اليه عن جالن ، ولكنه أبدى نفورا شديدا ورفض أن يستمع الى .

ومرت بى الأيام وأنا منهمكة فى معالجة الرجل حتى حل الموعد الذى كان على زوجى أن يصل فيه .. ولكنه لم يصل .

جهزت المؤن والأمتعة .. واصطحبت اثنين من المواطنين ، وغادرت القرية متجهة الى الناحية التى كان يجب أن يأتى منها زوجى والتى أتى منها جالن من قبل .

كان الطريق شاقا .. والسير منهكا .. ومضت بضعة أيام قطعنا فيها بضعة عشر ميلا .. وفي اليوم السابع التقينا بأحد المواطنين الذى حذرنا من السير خشية أن نقع فى أيدى احدى القبائل المعادية التى صادفت منذ بضعة أيام أحد الرجال البيض وذبحته .

ولم تكن قصة الرجل مقنعة تمام الاقناع ، ولكن الأمطار بدأت تهطل بغزراة وأجبرتنا على العودة .. ولم أبصر زوجي بعد ذلك أبدا .

عدت الى القرية ومكثت فيها حتى خفت الأمطار ، وحتى أضحت العودة مستطاعة ، ثم عدت الى البلدة ورحلنا بعد ذلك عائدين الى انجلترا ، ثم سافرت الى مصر ، واستمر بنا المقام هنا .

وصمتت السيدة .. ورأيتها تتناول سيجارة ، ولمحت وجهها على ضوء الثقاب الذى أشعلته ، وبه كثير من غموض وابهام .

وساد الصمت برهة وقفز الى ذهنى سؤال كنت أعد الاجابة عليه أهم ما فى القصة كلها ، وسرعان ما قذفته اليها قائلا :

- وجالن .. هل تركتيه هناك ؟ !

ونفخت السيدة الدخان من شفتيها بشدة قبل أن تقول :

- انه لم يعد جالن .. لقد فشلت فى اعادة ذاكرته اليه .. وفشلت فى اقناعه انه هو نفسه حبيب العمر ورفيق الصبا الذى فقدته فى غابر الزمن دون أن تغفل عنه الذاكرة لحظة واحدة . ولم أجد بدا فى النهاية من الموافقة على أنه ليس بجالن .

وعادت السيدة مرة أخرى الى صمتها ، ثم أردفت بعد برهة بصوت خافت :

انى أحس فى بعض الأحيان برغبة شديدة فى العودة الى هناك مرة أخرى .. انى أشعر أنه لا بد لى من الحصول على دليل يثبت أن زوجي السابق قد قتل .. وأن هؤلاء الهمج الذى وقع فى أيديهم قد نبحوه فعلا .. أجل .. لابد أن تكون هناك أخبار جديدة بعد مضى هذه السنين الطويلة .. انه حقيقة

يعتبر بين الأموات ، ولكنى عندما أفكر فى جالن .. وكيف وجدته حيا بعد أن أيقنا من وفاته .. يعترينى دائما نوع من الشك .. وأعتقد أنه من المحتمل أن أجده هو الآخر حيا .

وكنت أجد السؤال الذى يلح على نفسى ما زال معلقا بلا اجابة .. كان مصير جالن هو أهم ما أريد أن أعرف من القصة كلها .. فقد كنت أراه على حد قولها حبيب العمر الذى لم تغفل عنه الذاكرة .. وكنت أعجب كيف تركته لمصيره فتسرب من أصابعها بعد أن أطبقت عليه يدها .. وكيف تريد العودة الى الأدغال لتتأكد من مصير الزوج الميت بدلا من التأكد من مصير الحبيب الحى ، ولم أستطع أن أمنع أفكارى من التسرب من رأسى فى صورة سؤال أطلقته قائلا :

- لاشك أنك تريدين أيضا معرفة ماذا تم لجالن المسكين ؟

وتصاممت عن سؤالى ولم تعبأ بالاجابة عليه ، بل قذفت بعقب سيجارتها .. ثم نهضت من مقعدها وضحكت ضحكة خفيفة وقالت :

- الى العشاء .. لقد أضعت وقتكما سدى .

وبدأنا الجلوس حول المائدة . واقتربت السيدة من حجرة زوجها وصاحت تنادى :

- لقد أعد العشاء .. والضيوف فى الانتظار .

وتطلعت ببصرى الى باب الحجرة ، فقد كانت بى لهفة الى رؤية الرجل .

وفتح الباب وخرج الرجل علينا لأول مرة .. فاذا به كهل أشيب مسترسل الشعر ، مطلق اللحية ، لايستطيع الانسان - على حد قولها - أن يميز ملامحه وسط ذلك الكوم الهائش من الشعر .. وكان الخاتم ذو الحجر الأخضر واضحا فى أحد أصابعه ، وعرّفتنا به السيدة قائلة :

- زوجى .. مستر جيم .. جيم أندروز .

وحاولت جهدى أن أكتم صيحة الدهشة التى أوشكت أن تنطلق من شفتى .. لقد عرفت ماذا تم لجالن .. وعرفت أيضا سبب رغبتها فى السفر للتأكد من وفاة زوجها الأول .. ووجدتنى أقول لنفسى وأنا أجر المقعد الى المائدة وعيناى ترقبان المرأة وهى تجلس الرجل برفق وحنان :

- لقد استعادته مرة أخرى .. يا للمرأة العجيبة .. ويا للذاكرة التى لم تغفل .. لقد أغفل عنها ذاكرته .. ولكن ذاكرتها لم تغفل عنه أبدا .



هذيان محموم

كل ما أطلبه منك هو أن تزورينى بعد أن ينتهوا من عمليتهم . عدينى بأنك ستأتين ، فتهبينى قوة ، فقد قلت لك اننى لا أملك فى هذه الحياة سوى الذكرى .. والأمل .. وأنت ..

حدثنى صاحبى قال :

-- عندما نظرت الىّ فنفذت نظرتها من الضلوع واستقرت فى الفؤاد .. ساءلت نفسى : أتلك هبتها تمنحها كل حدث شارف الهلاك وبات من الموت على قاب قوسين ؟

وعندما نظرت اليها واستقر بصرى على شعرها وعينيها وشفتيها .. أصابتنى حسرة وتملكتنى لوعة .. وأحسست بقلبى يتململ وجسدى يرتجف .. وقلت لنفسى ان الحياة قد سخرت منى وخدعتنى وهى غرارة .. توشك أن تدبر حيث يجب أن تقبل .. وتوشك أن تولى ، وأنا ما أحسست بحاجتى اليها كما أحسست فى تلك اللحظة .

هأنذا مسجى على فراش الموت .. قد برح بى الداء ، وأنهكتنى العلة .. فلم تبق منى الا جلدا على عظم .. وعظما على وضم . وهاهى ذى أمامى الروح الجميلة التى أعيانى البحث عنها ، ونصفى الآخر الذى طالما تقت الى لقائه .. قد لقيته أخيرا .. ولكن بعد أن حانت الساعة ودنا الأجل .

لقد مرت بى أيام ثلاثة .. كنت لا أعى فيها شيئا سوى أننى أتعذب وأتألم .. حتى أضحى الموت والحياة لدىّ سواء .·. ثم حملونى فى عربة الى المستشفى ومعى خطاب من الطبيب الذى أشرف على علاجى .. وهناك وضعونى على مقعد متحرك ثم دفعونى فى طريق ضيق حتى وصلت الى غرفة استقبال مكثت فيها أنتظر الطبيب .. وتركنى الرجل الذى يدفع المقعد ثم ذهب الى احدى الممرضات فتحدث اليها برهة . فأقبلت الممرضة وطلبت منى الخطاب .

وقفت الممرضة تقرأ الخطاب وهى منى على قيد خطوات ووجدتنى أمعن البصر فى شعرها الذهبى الذى انساب على كتفيها وفى عينيها الصافيتين اللتين يشع السحر من خلال أهدابهما الطويلة .. ولاشك أن فتنتها كانت شيئا عجيبا فلا أظن أن من السهل أن يستثار مريض ييس عوده وغاض من جوفه ماء الحياة .. الا اذا كان ما أثاره شيئا خارقا .. ولقد كانت فعلا خارقة .. باستدارة خديها .. ودقة أنفها .. ولون شفتيها .. وبريق أسنانها الذى يخطف البصر .

وانتهت من قراءة الخطاب فاقبلت علىّ قائلة : «أرنى نبضك» ثم مدت يدها الدقيقة فقبضت بها على رسغى وأخذت تنظر الى ساعة فى يدها وأحسست اذ ذاك بنشوة عجيبة وتمنيت لو طالت وقفتها بجانبى حتى آخر العمر .. على الا يكون له آخر .. بل يكون بلا نهاية .. لقد كرهت الموت .. وأعجب من هذا أنى كرهت الشفاء .. ولم أك أطمع الا فى شىء واحد هو أن أبقى هكذا مستلقيا .. تجس الفتاة نبضى .

وبعد لحظة تركت يدى ، ثم كتبت على الخطاب شيئا وردته الى بعد أن وضعته فى ظرفه طالبة منى أن أسلمه للطبيب عندما يصل .. ونظرت الى عينيها نظرة طويلة . وخيل الى أنى أبصر فيهما شيئا عميقا .. وأدركت أنها مثلى مخلوقة غير سطحية ولا تافهة .. مخلوقة مرهفة الحس فياضة الشعور .. وأنها تستطيع أن تفهم مشاعرى دون أن تصيبها دهشة ولا سخرية .. فقلت لها هامسا .. وقد انحنت على برأسها ، وبدا فى عينيها عطف شديد :

- انى أود أن أعيش .

- ولم ؟

- لأنى سوف لا أبصرك فى الحياة الأخرى .. ستغيبين عنى فترة طويلة .

- ولكن لابد أن أذهب أنا الى الحياة الأخرى فى يوم ما ..

- ستكونين قد أصبحت شيئا آخر .. ولكنى أريدك كما أنت .. هذا هو ما أود أن أعيش لأجله .. لأراك كما تبدين الآن .. انى لا أرغب أن أنتظر ما سوف يفعل بك الزمن .. فهو سيفعل بك ما يفعل بالآخرين .

- وأى شىء يفعله بالآخرين ؟

- يسلبهم قوة الاحساس والادراك التى نتمتع بها الآن ، انه يتركهم مجرد رسوم متحركة لا روح فيها ولا حياة .

ونظرت الى باسمة وانصرفت قائلة :

- انه لايستطيع أن يفعل بى ذلك .

ونظرت الى الخطاب .. وفتحته وقرأته رغم أنى كنت أعلم أنه لايجب علىّ قراءته ، فعلمت منه أننى مصاب بتسمم فى الدم ، ولم تمض لحظات حتى أقبل الطبيب وألقى على نظرة خاطفة بعد أن قرأ الخطاب ثم نادى ممرضة أخرى سوداء الشعر ، دقيقة التقاطيع ، رقيقة الملامح ، وتحدث اليها برهة .

ودفعتنى الممرضة السمراء خارج الحجرة فسألتها الى أين تذهب بى ، فأجابت بأننى ذاهب الى غرفة العمليات لاجراء عملية عاجلة . وصمت برهة ثم سألتها ان كنت أستطيع أن أرى الممرضة الشقراء قبل أن أذهب الى هناك .. فهزت رأسها متسائلة عن السبب ، فأجبتها أن ذلك أمر يتعلق بى وبالممرضة نفسها .. وبدا عليها كثير من الدهشة .. ولكنها وعدتنى باحضارها .

لقد كنت أخشى الذهاب الى غرفة العمليات لئلا أحرم رؤية الفتاة .. كنت أود أن أتزود منها بنظرة أخيرة .. لقد أثار شجنى أن يكون لقائى مع توأم نفسى لقاء لحظة تغرب بعدها الحياة .

وفى تلك اللحظة رأيتها مقبلة .. وعندما اقتربت منى توقفت قليلا وبدأت تصغى لما أود أن أقول .. موجهة الى تلك النظرة التى تفيض عطفا وحنوا .. تلك النظرة التى تجعلنى أتعلق بالحياة .. وقلت لها هامسا :

– انهم سيذهبون بى الى غرفة العمليات .. ويساور نفسى احساس بأنى على شفا الموت .. ووسط هذه الدنيا الواسعة التى تصطخب أحس بوحدة مضنية .. لا زوجة لى ولا أهل ولا أصدقاء .. واذا ما مت فلن يكون هناك أحد بجوارى على فراش الموت .. اننى مازلت فى مقتبل العمر .. ولا أملك سوى الذكرى والأمل .. وهذان يجعلان الموت أمرا عسيرا على نفسى .. كل ما أطلبه منك هو أن تزورينى بعد أن ينتهوا من عمليتهم .. عدينى بأنك ستأتين فتهبينى قوة ، فقد قلت لك اننى لا أملك فى هذه الحياة سوى الذكرى .. والأمل .. وأنت .

– سأفعل ما تريد .. عندما تفيق من العملية ، ستفتح عينيك لتجدنى بجوارك .. واياك أن تموت فسيصيبنى موتك بخيبة أمل وستثير غضبى عليك اذا سمحت للموت بأن يقهرك ، لابد أن تعود لكى تخبرنى ماذا رأيت فى غيبوبتك .. عدنى بألا تموت .

وفارقتها بعد أن وعدتها بما طلبت .. وقد غمرتنى السعادة وملأنى الأمل فى الحياة ، وفى غرفة العمليات وضعت تحت تأثير المخدر .. ولم أعد أحس بشىء .

وانى لأذكر كيف بدأت أعود الى وعيى ..فرأيت فوقى قفصا مكسوا بقماش أحمر ومن ورائه ضباب كثيف وفى أعلى السقف أبصرت بضوء يتألق .. وحملقت فى هذه الأشياء برهة ثم أدرت رأسى لأجدها جالسة هناك ، وكانت تنظر الى بهدوء وقد علت شفتيها بسمة حلوة .. وقلت لها متسائلا :

– لم كان شعرك بهذا اللون الذهبى العجيب ؟ ولم كانت عيناك تشعان بهذا السحر الذى لايقاوم ؟ .. ولم ترتدين هذه البلوزة الزرقاء وتجلسين تحت هذا الضوء المتألق ؟ .. ولم هذا السكون الذى يسود المكان والضباب الكثيف الذى يلفه ؟

- لم تسأل عن هذه الأشياء ؟

- انى لم أعد الى الحياة الا لأعرف الاجابة عنها .. ان ذلك هو سبب حياتى .. لقد وعدتك أن أعود .

- ماذا أبصرت فى غيبوبتك ؟

- لقد أبصرت أشياء هامة .. تتعلق بشعرك وعينيك .. وبكل شىء فيك ، ولو استطعت أن أعرف سر هذه الأشياء لعرفت لماذا كنت أنت كما أنت ، ولعلمت لم أضحيت أنت تعنين كل شىء عندى .. تعنين الليل والنهار .. والشباب والعمر .. والربيع والخريف .. تعنين الحياة وما بعد الحياة .

أريد أن أعرف كيف تتنفسين وكيف تنامين .. أريد أن أعرف كيف تفعلين هذه الأشياء البسيطة التى يفعلها كل انسان ؟ ! أريد أن أغيب عنك النهار لأعود اليك فى الليل فأقرأ ما برأسك وأسمع همساتك عندما تجمعنا سويا غرفة مظلمة هادئة .. أريد أن أسير معك جنبا الى جنب .. نعدو ونلهو .. بين حفيف الشجر وهمس الطير .. أريد أن أستلقى بجوارك على شاطىء البحر ثم نغمر نفسينا سويا فى الماء .. أريد أن أفعل معك أشياء كثيرة لاتحصيها الذاكرة .. أريد أن أعيش معك فلا أفارقك .. حتى ولابعد الموت .. فبالذكرى وبالأمل .. وبك .. أستطيع أن أقهر الزمن والموت واليأس .

- لقد قهرت الموت فعلا .. وبالذكرى والأمل تستطيع أن تقهر الزمن واليأس .

- لن أقهرهما الا بك .. أنت وحدك فقط .

- اصغ الى جيدا .. عندما تذهب من هنا لن أكون معك .. ولكننى سأكون فى ذاكرتك .. انك لن ترانى ولكنك لن تنسانى .. واذا ما رأيتنى فقد لاتعرفنى واذا ما رأيتك فقد لا أعرفك .. ولكن سيبقى كل منا كائنا فى نفس الآخر حتى آخر العمر .. هذا الشىء الذى يكمن فى نفوسنا فى زمن الصبا .. فيرينا شخصا معينا بطريقة مخصوصة .. ويخلع عليه هالة من الضوء ويلفه فى جو غامض من السحر والفتنة . هذا الشىء الذى جعلك تقهر الموت

واليأس .. وتعود الى الحياة مليئا بالأمل الحلو والأمانى الخلابة .. هذا الشيء هو كل شيء .. أما أنا فلا شيء .. هذا الشيء سيبقى منه فى نفسك بصيص يضيء حياتك ولن يخبو اذا خبا غيره من الأضواء .. هذا البصيص لن يستطيع الزمن اطفاءه .

وصمتت الفتاة ورأيتها تقترب مني وشعرت بشفتيها توضعان برفق على شفتي .. ثم أحسست أنها قد اختفت فجأة وأن الضوء الذى كان يتألق فى سقف الغرفة قد ذهب وشملنى ضباب كثيف .

وعندما استيقظت رأيت نور النهار قد غمر الحجرة .. ومر اليوم وأنا أحملق أمامى فى سكون .. أنتظر مجيء الليل حتى تعود الى فأتحدث اليها مرة أخرى .

واستيقظت فى الليل .. فلم أجد أحدا بجوارى وكانت الحجرة يسودها السكون .. وبعد لحظة أقبلت ممرضة الليل .. السمراء الرقيقة .. وقد علت شفتيها بسمة تفيض حنوا وعطفا .. وقلت لها متسائلا :

- ألم تحضر الممرضة الشقراء التى كانت بجوارى فى الليلة السابقة ؟ والتى منحتنى بمعونتها الحياة ؟

ونظرت الى بعينيها السوداوين ورمقتنى بنظرة عتاب رقيقة لم أفهم لها سببا ، وضمت شفتيها المفترتين وصمتت لحظة قبل أن تجيب :

- لا .. انها لم تأت بعد .

- اذاً سأظل مستيقظا حتى تأتى .

- اذا كان الأمر كذلك فدعنى أعطيك شيئا يساعدك على البقاء متيقظا .

ومدت يدها الى بقرص صغير وكوب ماء .. فابتلعت القرص وشربت بعض الماء ونظرت اليها فى رضاء وسكينة فأبصرت فى عينيها نفس النظرة الحزينة العاتبة .

واستيقظت بعد ذلك فرأيت ضوء الشمس قد تسلل من النافذة وتلفت

حولى فرأيت ممرضة الليل ذات الشعر الحالك جالسة بجوارى ، وقد ارتدت ملابسها العادية فسألتها قائلا :

- ألم تأت بعد ؟

وهزت رأسها ببطء وأجابت :

- كلا .

- ولم أنت هنا بجوارى ؟

- ستعود الى دارك اليوم ولم أشأ أن أتركك وحيدا .. فقد خيل الى أنك قد تكون فى حاجة الى شىء .

وعدت الى دارى فى ذلك اليوم ولم أر الممرضة الشقراء بعد ذلك ، ولكن كلماتها بقيت منقوشة فى ذهنى : «عندما تذهب من هنا لن أكون معك ولكنى سأكون فى ذاكرتك .. انك لن ترانى ولن تنسانى .. هذا البصيص من الضوء لن يستطيع الزمن اطفاءه» .

وبالطبع لم تكن تلك الكلمات الا أضغاث أحلام .. فانى لم أر الممرضة الشقراء بعد العملية (اما لأنها لم تأت أو لأنها قد حضرت وأنا فى غيبوبة الحمى) ولم يكن ما حدث بينى وبينها مما توهمته بعد العملية الا أوهام ذهن عصفت به الحمى .. أجل .. لقد كان كل ذلك هذيان محموم .

وفى كل مرحلة من مراحل الحياة يتخيل معظم الناس أنهم يعرفون كل شىء تتحتم عليهم معرفته ، أما ما لايعرفونه فانهم يعتبرونه تفاهات لاتستحق المعرفة .

والآن لقد تزوجت بعد ذلك ومرت بى الأيام وأنا أتوهم أنى قد فهمت زوجتى تمام الفهم وأننى قد استطعت أن أسعدها وأهبها ما تتوق اليه من هناك وأنها قانعة راضية .. حتى سمعتها تقطع الصمت ذات ليلة فتهمس فى أذنى قائلة :

- لم لا تسألنى .. لم كان شعرى كما هو ؟ ولم كانت عيناى كما هما ؟

ألا تريد أن تعرف لم أنا كما أنا ؟ أم يتحتم على أن أكون شقراء وأن أرتدى بلوزة زرقاء وأجلس تحت ضوء متألق ؟ !

واني لأذكر أننى لم أبح بسر هذه الأقوال قط لكائن من كان .. ولكن بقيت كلمة أخيرة قد تفسر الأمر .. وهو أن زوجتى هذه هى الممرضة السمراء الرقيقة التى كانت تسهر بجوارى عندما كانت تعصف بى حمى العماية .. والتى لم يغمض لها جفن حتى أنقذتنى من براثن الموت .. وكان أكثر ما يحز فى نفسها هو انكارى شخصها فى خلال غيبوبتى عندما كانت تمرضنى وتجلس الى جانبى ليل نهار .. أجل .. لقد كان أكثر ما يحزنها أننى أتوهمها الممرضة الشقراء .

على أننى مازلت أذكر الفتاة الشقراء وأذكر كيف جعلنى الأمل فى رؤيتها مرة ثانية أقهر الموت وأعود الى الحياة .. قد تكون لم تف بوعدها ولم تأت .. وقد يكون حديثها الى وأنا ذاهب الى غرفة العملية .. مجرد حديث ساقته الى انسان لا أمل فى حياته ، وقد تكون جهود زوجتى وسهرها وعنايتها هى التى صدت عن جسدى غائلة المرض وعادية الموت .. ولكنى واثق أنها هى التى دفعت فى روحى قوة المقاومة .. فقد ملأت نفسى بالأمل .

وما الانسان ؟ وما الحياة ؟ .. اذا لم يوجد الأمل !!



خاتمة المطاف

وهن منها العظم ، وضمر الجسد ، لولا حجل فى الساق .. ولولا بقية من جمال بائد .. ولولا نبالة ما زالت تشتعل فى القلب فتريه حقيقة الأشياء لما عرفت فيها شبح صاحبتى الأولى ومعبودتى السابقة .. وحبيبة الروح وصديقة الصبا .

١ يونيو

«ولاتمش فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا» ..

جادك الغيث اذا الغيث هما .. يا زمانا كنت لا أمشى فيك الا مرحا .. وكيف أستطيع غير ذلك !! وقد كنت من فرط قوتى أضرب الأرض بحافرى فأكاد أخرقها .. وكنت أملأ خياشيمى بالهواء وأرفع رأسى عاليا فى السماء فيخيل الى أنى أطاول الجبال .. ترى ماذا كان يمنعنى من المشى فى الأرض مرحا وأنا أستطيع أن أخرق الأرض وأن أبلغ الجبال طولا ! ..

من كان يصدق أن المطاف سينتهى بى فى آخر العمر فألقى فى ركن مظلم فى هذه العربخانة الكريهة القذرة مع غيرى من سوقة الخيل ودهمائهم .

انى لأقلب الذهن فى صفحات العمر .. فينتهى بى التفكير الى أننى حتما .. لست أنا .. والا لما أحتملت هذا المصير أو رضيت هذه النهاية .

انى لأذكر مولدى وما حف به من اشراق ولألاء .. وأذكر تلك الفرحة والغبطة التى سرت فى نفوس القوم .. وأذكر مظاهر الاجلال والاكبار التى استقبلنى بها القوم كأننى المهدى المنتظر ، وعلمت بعد ذلك سر ذلك التقدير والاهتمام .. فقد كنت نتاج خير أب وخير أم .

كان أبى من أكرم الجياد وأوسعهم شهرة ، وكانت أمى لاتقل عنه كرامة محتد ونبالة أصل .. واستقر رأى القوم على أن يجمعوا بينهما اذ لم يكن لديهم شك أن نتاجهما سيكون بين الجياد أعجوبة .

وخرجت الى الدنيا فكنت حقا أعجوبة .

انى لأذكر رقدتى بجوار أمى الشقراء الجميلة وقد أخذت تهمس فى أذنى كلمات التدليل .. وتسوق الى النصائح بصوتها الرقيق الحنون .

كانت تحذرنى وتتنذ من بنى الانسان وكنت أعجب لها وأتهمها بنكران الجميل .. فقد بدا لى الانسان رقيقا مهذبا .. وكان شديد العطف علينا والبر بنا .. بل انى كنت أعجب ماذا عسانا كنا صانعين فى هذه الدنيا لولاه .. من كان يقدم لنا الطعام .. ومن كان يسقينا ؟ .

ولكنها أنبأتنى أنه ماكر غادر .. وأنه أنانى جشع ، وأنه لايعطى أبدا الا اذا أدرك تماما أنه سيأخذ أكثر مما أعطى .

لشد ما كانت حانقة عليه كارهة له .. فما تحدثت عنه الا ونفسها تفيض بالحقد والموجدة .. لقد كان بقلبها جرح تنكؤه رؤية الانسان أو ذكراه .

وعلمت بعد ذلك سبب حقدها على الأنسان .. فقد ذكرت لى أن كل أهلها وذويها قد قتلهم الانسان .. وكانت عيناها تترقرق بالدموع عندما قصت على كيف استيقظت ذات يوم وهى ما زالت فى المهد صبية .. وافتقدت أمها فلم بدها .. وبحثت عن بقية الخيل فلم تجد منهم أحدا .. وأفزعتها الوحدة وأعياها حث .. ثم صادفت حصانا عجوزا مريضا فسألته عن بقية الجياد فأنبأها بصوت حزين أنهم ذهبوا جميعا .

- ذهبوا ؟ !! الى أين ؟ !!

- لقد امتطاهم الرجال وذهبوا الى حومات الوغى .

- حومات الوغى ؟

وهز الجواد العجوز رأسه .. وأنبأها أن الانسان قد تعّود القتال مع نفسه .. وأنه لايعدم بين آونة وأخرى مبررا لهذا القتال .. فيجرد أسلحته ويذهب الى ميدان القتال ثم يعود مثخنا بالجراح ممزق الأعضاء .. هذا اذا عاد !

- ولكن ما دخلنا نحن اذا كان الانسان يهوى أن يقتل بعضه ؟

- لقد هداه تفكيره أن يشركنا معه فيطهمنا ويشد علينا أسلحته ويلقى بنا فى ميدان القتال لنساعده فى فعلته المنكرة .

وهزت رأسها غير مصدقة وخيل لها أن الحصان العجوز يهذى بما لايعى .. ولكنها أدركت فى النهاية أنها الحقيقة التى لا غبار عليها .. ومن ذلك اليوم دب فى قلبها كره الانسان ومقته .. وعلمتها الأيام بعد ذلك أنها كانت محقة فى ذلك الكره .

كانت أكثر ما يحزنها أن الانسان يسيطر على غيره من المخلوقات وهو أكثرها غباء .. وأنه يمتطينا ونحن أحق بامتطائه .

كانت تنصحنى ألا أخدع بما أراه من ابتكارات أو اختراعات فانه سرعان ما يهدم ما بنى ويحطم ما صنع ويعود بنفسه الى حالته الهمجية الأولى .. وهذا هو دليلها على أن الانسان مجنون مهما أبدى من آيات الذكاء والنبوغ لأنه يحطم بيساره ما صنع بيمينه .. وهذا هو سيماء المجانين .

وبدا علىّ الجزع وقتئذ .. فقد خشيت أن يعاوده جنونه فيذهب بنا الى الحرب ، ولكنها طمأنتنى فى رفق وأنبأتنى أنه لم يعد علينا خوف ولا حرج اذ لم يعد الانسان فى حاجة الينا فقد أصبحنا أعجز من أن نستطيع معاونته اذا ابتكر لنفسه معاقل متحركة من الصلب خيل اليه أنها تقيه الخسائر ، ولكنه

كان فى ذلك غبيا كعادته ، فخسائره هى هى .. سواء سار على قدميه .. أم امتطانا .. أم أمتطى الشياطين .

ولم يطل بقائي مع أمى فترة طويلة .. فسرعان ما افترقنا ولم أعد أراها الا لماما .. وبدأت أخوض وحدى معترك الحياة وأنا ملىء بالقوة والأمل .. ولم أر فى الانسان ما يجزعنى اذ كان شديد العناية بى .. والسهر على راحتى بل انه فى أكثر الأحيان كان يفضلنى على نفسه .. حتى كدت أنسى تماما ما لقنتنى أمى من أسباب الحقد عليه وسوء الظن به .

وفى ذات يوم وقع لى ما أظنه قد وقع لكل جواد .. بل لكل مخلوق تدب فيه الحياة .. فقد أصابنى شرر الحب .

رأيتها أول مرة .. شقراء ذهبية الشعر .. باحدى ساقيها حجل .. ورأيت برأسها الصغير تلك السيالة البيضاء فى وجهها والرتمة فى مقدمة أنفها .. ورأيت معرفتها كأنها خيوط من ذهب وقد مالت على صفحة عنقها والريح تعبث بها .. وأبصرت جسدها الملفوف وذنبها الممشط الأنيق .

فكانت الواقعة !!

لقد سقطت فى الهوى .. ولم أجد هناك ما يمنع قط من السقوط فيه .. فقد كان لذيذا ممتعا .. وكنت لا أكاد أراها عن بعد أو يحمل الىّ النسيم عبيرها حتى أصهل بشدة وأحس بالدماء تجرى حارة فى عروقى فأندفع اليها تاركا كل ما أمامى حتى ولو كان أجود الطعام .

وكنت أعلم أنها تهوانى ، فقد كنت شديد الخبرة بأمور الاناث وأحوالهن .. ولم أكن أعبأ بما يبدو عليها من ادعاء للغضب قد يصل فى بعض الأحيان الى الضرب «بالجوز» فقد كنت أحس أنه غضب مصطنع وكنت أشعر كما يقول الانسان : ان «ضرب الحبيب زى أكل الزبيب» .

ومرت الأيام وأنا لا أرى الا كل ممتع لاذ .. لاتشوب صفو العيش شائبة ولا يضيره كدر .. وأمنت الزمن .. والانسان .. والدنيا .. وخيل الى أن الحياة قد ذهب منها الهم وامحى الشقاء .

وأخيرا حلّ اليوم الذى رأيت فيه صدمات الحياة .. فقد عرضت للبيع ، وعلمت يومئذ أن كرم الانسان نحوى وعنايته لم يكونا بلا سبب .. فقد كان ينتظر من ورائى صفقة رابحة .. ولم تكن الصدمة التى أصابت نفسى منشؤها عرضى للبيع أو الانتقال من انسان لانسان .. فقد كانوا كلهم عندى سواء . ولكن الكارثة كانت فى فراق صاحبتى .. هذا هو مبعث الألم ومنبع الوجيعة .

«ووقفنا لوداع .. وافترقنا بعد نظرة» وأحسست حرقة فى قلبى .. ولوعة فى فؤادى .. وكنت حديث العهد بالمصائب ، فقد عشت حياتى كلها خلوا من الهم والسوء .

وبدأت حياتى الجديدة فى مكان جديد ، وخفف من لوعتى أننى ما زلت محل احترام واكبار .. بل لقد خيل الى أن القوم الجدد يضمرون لى من الاجلال والتقدير أكثر من السابقين .

وعلمت أنهم يعدوننى لكى أكون ضمن خيول السباق .. فأحسست بعض الاغتباط اذ كان لدى من القوة ما يملؤنى ثقة وأملا .. وخيل الى أن انتصارى فى السباق قد ينسينى وجيعة الفراق .

ودخلت السباق لأول مرة .. وكنت أحس الهيبة تملأ نفسى وكان يساورنى الشك والقلق .. وبدأ السباق فانطلقت كالسهم المارق .. ولم أعد أحس الا الريح تصدم وجهى وتندفع الى خياشيمى .

وانتهى الشوط فاذا براكبى يربت على عنقى ويقبلنى بحرارة ، وتدافع الناس الى فعلمت أننى قد ربحت السباق .

وسرتنى حياتى الجديدة .. حياة الفوز والمغامرة ، وأخذت أنتقل من انتصار الى انتصار حتى جاء يوم أحسست فيه بما ثبط همتى وبدل قوتى عجزا .

كان ذلك فى أحد السباقات .. وقد اندفعت أمام الجياد وقد سبقتها بمرحلة أثارت الدهشة .. ولكننى أحسست فجأة أن راكبى يجذب اللجام فى فمى .. وشعرت أنه بدلا من أن يستحثنى قد أخذ فى عرقلتى عن العدو حتى سبقتنى بقية الجياد .

وملأ اليأس نفسي ودهشت من راكبي كيف سبّب لي هذه الخسارة ، وأخيرا علمت أنها ألعوبة من ألاعيب السباق القذرة وأنه قصد عرقلتي حتى يفوز غيري الذي لم يكن ينتظر له أحد أن يفوز فيربحون من ورائه ربحا طائلا .

ومن ذلك اليوم لم أربح قط فقد تبرمت بالسباق وبالانسان ، وعاودتني ذكرى صاحبتي التي كان قلبي قد سلاها بعض الشيء .

وبدأت معاملة الانسان لي تسوء ، ولم أعد أرى من كرمه ما كنت أراه .. وأخيرا بدت لي حقيقة خلقه عندما أصبت بعرج فلم أعد أصلح بعد ذلك للسباق .

عجيب هذا الانسان .. ما رأيت أشد منه نكرانا للجميل ولا نسيانا للمعروف .. لقد نبذني نبذ النواة .. فكأني ما جلبت له المال ولا ملأته فخرا وزهوا .. لقد أنكرني بعد طول اعتبار .. وازدراني بعد اجلال واكبار .. فقد أخذ مني كل ما يمكن أخذه .

وعرضت للبيع مرة ثانية .. وشتان بينها وبين الأولى .. كنت في الأولى مهابا مرفوع الرأس ، وفي الثانية ذليلا مطأطأ الهامة .. كنت في الأولى جسدا قويا .. وفي الثانية حطاما باليا .. كنت أفيض بالحياة والأمل .. فأصبحت أفيض بالفناء واليأس .

وتمت الصفقة .. وانتقلت الى عملي الجديد أجر مع زميل محطم مهدم .. احدى عربات الحنطور .

٤ يونية :

«عزيز قوم ذل» .. لو كنا معشر الخيل نكتب أسماءنا على بطاقات كما يفعل الانسان .. لما كتبت على بطاقتي سوى هذه العبارة .. فما رأيت أصدق منها للتعبير عن حالتي .

هذا الجسد القوي الذي كان يندفع فيسابق الريح .. قد أضحى لايكاد

يقوى على جر تلك العربة التى تتمايل ذات اليمين وذات اليسار .. هذا الجسد الذى كان فتنة للأعين قد أضحى قذى لها .

كم خدعتني الحياة .. وهي غرارة ضرارة .

كنت فيما مضى أعجب لتلك الرقع السوداء التى توضع على أعين الخيول التي تجر العربات ، وكنت أرثى لهم ، فقد حجبت عنهم الدنيا .. ولكنى عرفت الآن حكمتها ولمست فضلها .. ولو أنصف الانسان نفسه لوضع مثلها على عينيه لتخفى الدنيا عن ناظره ، فمساوىء الحياة أكثر من محاسنها .. فلو حجبت عنا المساوىء والمحاسن لكنا الرابحين .

وبدأت أعود النفس على عملها الجديد وأروضها على احتمال المكاره .. وماذا أستطيع سوى ذلك .. ما دمت سأفعله راضيا أو كارها .. بل اننى بدأت أجد فيه بعض اللذة عندما أسير فى الطرقات مع زميلى الذى يمثل الصبر والقناعة .. وقد أخذنا نتجاذب أطراف الحديث .. فأقص عليه شجونى ويقص شجونه ، ويقطع علينا الحديث فجأة فرقعة من سوط الحوذى لا مبرر لها ولا موجب .. فتزعجنا برهة ثم نعاود الحديث .

ولم يكن يعجبنى فى ذلك الحوذى شىء قدر اعتداده بنفسه وبعربته وبخيله .. اذ كان يسير فى الطريق .. وكان الطريق ملكه لا يأبه لغيره من مخلوقات الله المتعجلة .

٦ يونيو :

أخبرنى زميلي أنه يحس مرضا بجوفه وأنه يخيل اليه أن نهايته قد قربت .. وتمنى لو أراحه الحوذى يوما أو بعض يوم حتى يسترد قواه .. فحاولت جهدى أن أرفه عنه وأن أدخل الاطمئنان على نفسه .

٧ يونيو :

رفض الحوذى رفضا باتا أن يريح الزميل التعس مع أننى كنت على أستعداد لأن أجر العربة وحدى فى سبيل راحة المسكين .. ولم نكد نسير فى الطريق بضع خطوات .. حتى سقط صاحبى على الأرض .. ونفق لساعته ..

لا أدرى من منا أحق بطلب الرحمة من الله .. الذين ذهبوا من الحياة أم الباقون فيها .. رحمهم الله ورحمنا .

٨ يونيو :

ابتاع الحوذى زميلا آخر .. أتدرون من هو ؟ فرس عجوز عجفاء .. قبيحة شوحاء .. وهن منها العظم وضمر الجسد لولا حجل فى الساق .. ولولا بقيه من جمال بائد .. ولولا نبالة ما زالت تشتعل فى القلب فتريه حقيقة الأشياء .. لما عرفت فيها شبح صاحبتى الأولى ومعبودتى السابقة .. وحبيبة الروح وصديقة الصبا .

ونظرت اليها فى صمت فلمحت فى وجهها المغضن أبلغ آيات الحب والعطف ورأيت فى عينيها بريق دموع أغلب ظنى أنها دموع حمد وشكر ، واقتربت منها وألصقت برفق أنفى بأنفها وأحسست بقلبى يفيض بالهناء ، وشعرت لأول مرة بحلاوة الهدوء والاستقرار وأدركت أن خير ما فى الحياة .. هو قلب جميل يفيض علينا رقة وحنانا فنروى منه ظمأنا عندما يشفنا ظمأ الحياة ويكون لنا ملاذا عندما نحرم الملجأ والملاذ ..



لنا عودة

ولكن يده لم تقبض على عنقى بل امتدت لتفعل بى أقصى ما كنت أتوق اليه .. لتربت جسدى .. ولتتحسس ظهرى ، بمنتهى الرفق والحنو ..

كان الوقت ابان الظهيرة .. وسياط من لهب الشمس تلهب ظهر الأرض بضربات مستعرة حامية .. وكنت أحاول أن أحمى ظهرى بقطعة ظلال جاد بها على جدار قائم ما لبث أن غلّ بها يده .. وأخذ يقبضها عنى وأنا أتبعها بقدر ما يسمح لى الحبل الذى شد الى عنقى .. والذى ثبت طرفه الآخر فى قطعة حجر .

وكنت أرقد على الثرى لاهثة مدلاة اللسان .. عندما وقعت عيناى نصف المغمضتين من خلال قضبان الباب الحديدى على ستار من غبار أثارته عربة وقفت بالباب .

ومن وراء الستار هبط شبح طويل عريض المنكبين ومد يده فأغلق باب العربة ثم دفع الباب الحديدى وخطا الى الداخل .

وهرول اليه مرسى بجسده الضئيل النحيل وجلبابه الرث ووقف الاثنان يتحدثان .. وكنت فى حال من التعب والاسترخاء جعلنى أتشبث بقطعة الظلال التى أقبع تحتها فلم أحرك ساكنا .. وتركت القادم الطويل يقتحم المكان ويطوف بأرجائه .. دون أن آبه له بالترحيب أو النباح .

ولم يلتفت هو الى ، بل لم يحس لى وجودا ، وانبرى فى طريقه يتحدث ويشير بيده هنا وهناك وصاحبى يتبعه مصغيا حتى انتهى بهما المطاف الى حيث رقدت ، ووجدته يشير الى الركن المترب الواقع بين الجدارين قائلا :

– هذا الركن يحتاج الى عناية .. انه أقبح مافى الفناء .. اذ يبدو خربا متربا .. لماذا لاتزرع به شيئا ينفعك ويضفى عليه خضرة تكسبه بعض الرونق ؟ .. أو على الأقل تنشر تلك الأصص التى كدستها فى بقعة واحدة لكى تغطى بها سطحه المترب المعفر .

وأجاب مرسى موضحا :

– لقد أردت أن أفسح لها مكانا .. وأبعد الأصص عن محيطها حتى لاتتلفها بسافيها .

وتساءل هو فى دهشة :

– تفسح لها مكانا ؟ .. من هى ؟ ..

– الكلبة ..

– كلبة ؟ ..

ونظر فى عجب الى حيث أشار مرسى .. ولأول مرة وقع بصره علىّ قابعة على الأرض ، ملتصقة بقطعة الظل بجوار الجدار .. فى قمامة وقذارة .. وقد علت جسدى طبقة من الطين الجاف بعد أن تمرغت مبتلة على الثرى .. ومددت عنقى وأسندت بوزى الأسود على الأرض .. وتناثرت حولى آثار قمامة مخلوطة بالتراب .

ولا جدال أنى كنت بمنظرى هذا أمثل أقبح ما فى فناء المقبرة الجديدة الذى – كما عرفت بعد ذاك – كان يبذل كل جهده فى تنسيق وتنميقه وغرس الورود والرياحين فى أرجائه حتى يكسبه جمالا يذهب عنه وحشته ورهبته .

وتطلعت اليه وأنا ما زلت راقدة لاهثة مدلاة اللسان .. والتقت أبصارنا للمرة الأولى .. ونظر كل منا الى الآخر نظرة مليئة بالدهشة .. وشتان ما بين

الدهشتين .. كانت دهشته ملؤها الازدراء والاحتقار والاستنكار .. وكانت دهشتى ملؤها الاعجاب والاجلال والاكبار .. بقامته المهيبة .. ووجهه السمح . ولم يطل به التطلع الىّ حتى قال وهو يقلب شفتيه :

- وما حاجتك اليها ؟

- تنفع فى الحراسة .

- حراسة !! .. أهذه تنفع فى الحراسة ؟ .

وزدت احساسا بالضآلة وهو يرمق جسدى الهزيل ويردف باستخفاف :

- انها لاتستطيع أن تحرس شيئا .. انها صغيرة جدا .. لايكاد يحس بها أحد .

- غدا ستنمو .. وتصبح صالحة لكل شىء .. انها من أصل طيب .. لقد أحضرتها صغيرة لكى تألف المكان .. وتحرص على البقاء فيه .

ولم يبد عليه الاقتناع بضرورة بقائى ، اذ كانت القذارة التى أضفيها على المكان تطغى فى نظره على كل ما يمكن أن أسديه من خدمات وأقدمه من منافع .. فما بالكم اذا كنت أبدو فى نظره بلا نفع حاضر أو متوقع .

وعاد مرسى يؤكد منافعى :

- انها تنبح أحيانا على الغرباء .

ولقد صدّق الرجل ، فالنباح ليس بالأمر المستعصى على . وأحسست بشىء من الندم لأنى لم أنبح عليه عند قدومه .. لأريه قدرتى على النباح .. على أية حال .. فى المرة القادمة سأريه .. اذا أبقانى .

ورأيته يتحرك تجاه الباب دون أن يلقى نظرة أخرى علىّ ، وأخذت أرقب قدميه تطرقان الأرض بثقة وقوة واعتداد ، وقد علا غبار الطريق حذاءه اللامع وسمعته يقول وهو يركب العربة :

- لا أريد أن أرى هذا الركن قذرا فى المرة القادمة .

- أأطردها ؟

ولم يكن هناك شك أن «ها» هذه تعنى أنا .. وأن الجواب الذى يخرج من شفتيه سيقرر مصيرى .. وكنت أكره أن أشرد مرة أخرى .. وأعود بلا مأوى ولا طعام .

وبعد فترة صمت سمعت الحكم على فى قوله :

- دعها .. ولكن نظف حولها .

حمدا لله .. سيماهم على وجوههم .. انى لم أتوقع منه سوى الخير .. فمثل هذا الوجه السمح .. لايمكن أن يصدر عنه أذى .. انى أحبه .

وبدأ مرسى عمله فى تنفيذ أوامر السيد .. سيده .. وسيدى وسيد المقبرة .. فنقلنى من الركن المترب .. ونظفه ورص به الأصص .. ثم أقبل علىّ فأزال عنى الأتربة وغسل وعاء الطعام وهو يتمتم :

- انه يكره القذارة .. اياك أن تعودى الى التمرغ فى الثرى .. واحذرى اتلاف الأصص .. والا جنيت على نفسك .

ولقد حاولت جهدى أن أسمع نصائحه ، وأن أكون مخلوقة نظيفة مفيدة غير متلافة لما حولها .

وبعد بضعة أيام حضر السيد .. وكان الوقت هذه المرة صباحا .. والشمس المتثائبة وراء الأفق لاتكاد سياطها المتراخية تصل الى هام القباب .. وكنت طليقة فى الفناء لم أشد من عنقى الى الحجر بعد .. ونسيم الصباح الرطب يدفع فى جسدى احساسا لذيذا بالنشاط والحياة .. فأخذت أتواثب فى الممرات المرصوفة حول حوض الورد الذى يتوسط الفناء أمام قبة المقبرة .. وأنا أرقب مرسى يرويها ويزيل أوراقها الجافة وينزع من حولها الحشائش .

ونم عن وصوله صوت نفير العربة .. ثم غبارها المثار .. وطرقة باب العربة يدفعه خلفه وهو يهبط منها مقبلا على الفناء .

وأحسست من رؤيته فرحة شديدة لم أحاول كتمانها .. وغدوت اليه أهز ذيلى فى غبطة بالغة وأمسح رأسى فى قدميه فى شوق شديد .. لأريه أنى أعرفه وأحبه .

وكنت أتوقع أن يرد على تحيتى .. وأن يرى أنى بت مخلوقة أخرى غير المخلوقة القذرة المتكاسلة التى احتقرها فى المرة السابقة .. وأن ينعم علىّ بربت رأسى أو مس ظهرى .. ولكنى وجدته لايكاد يحس بى ورأيته يسير قدما عبر الفناء فيتحدث الى مرسى ويشير الى أحواض الزهور والى الأصص .. ثم يتجه الى القبة الجديدة القائمة فوق الأجداث ويقول :

- رخام الشواهد يحتاج الى مسح .. والبلاط يحتاج الى غسيل لازالة بقع الزيت التى خلفها النقاش .

- سأزيلها اليوم ان شاء الله .

- وماذا فعل الجمل بالمجاديل ؟

- لقد وجدها أكبر من فتحة السلم .. وسيحضر أحد الحجارين اليوم ليكسر جزءا من أطرافها حتى يمكن تركيبها على الفتحة .

- أرجوك استعجاله .. لا داعى لأن تبقى المقبرة مفتوحة هكذا .. نريد أن ننتهى .

- سنغلقها ان شاء الله خلال يومين بعد أن نساوى المجاديل وبعد أن نحضر نقلتين من الرمل الأبيض لفرشهما فى الأرضية .

- أضرورى هذا ؟

- بالطبع .. حتى تكون الأرض نظيفة لينة .

وكان الاثنان قد تحركا خلال حديثهما حتى وقفا أمام السلم المؤدى الى باطن الأرض .. ثم رأيت السيد يهبط السلم الى جوف المقبرة النظيفة الخالية وتبعه مرسى وأنا فى أعقابهما .

وخيم الصمت برهة .. وبدا عليه الشرود .. وما لبث حتى أطلق ضحكة قصيرة ساخرة والتفت الى مرسى وهو يبتسم :

- هنا المضجع الأخير .. سيضمنا واحدا بعد واحد .

- أطال الله عمرك ياسيدى .

- أطاله أم قصره .. لابد لنا من عودة .

ثم سار الى السلم يصعده بخطواته القوية المعتدة .. واتجه الى باب الفناء وأنا ما زلت أتسمح فى ساقيه علّى أحظى منه بالتفاتة عبثا .

وكرهت أن أنكر منه كل هذا الانكار ، واندفعت الى سائق العربة نابحة لأريه أنى أستطيع الحراسة وأنى أنبح على الغرباء وأنى لا أستقبل كل الناس بمثل ما استقبلته من فرحة وشوق وانى أستطيع التمييز بينه وبين الآخرين .. ولكن محاولتى لم تفلح فى لفت نظره .. ودخل الى العربة وأشار الى مرسى بالتحية .. ووقفت أرقب العجل يلف مثيرا الغبار وأنا أنبح فى ضيق وخيبة وخذلان .

وتكررت عودته بين يوم وآخر ليرقب نهاية العمل فى داخل القبة وفى الفناء .. حتى فرش الرمل ووضعت المجاديل ودقت اللافتة على الباب الحديدى .. وأزيلت آثار البياض والبناء .. وأوشك العمل كله على الانتهاء .

ولم يستطع تكرار اللقاء وفرط الشوق وشدة الحنين التى أبديها له بهز الذيل والتمسح فى أقدامه أن تزيل جموده وتذهب انكاره .. كانت أقدامه تتحركان فى صلابة وشدة غير عابئة بى .. لاترحيب ولاربت ولا حتى نهرا وزجرا .. لقد كنت فى نظره كانى غير كائنة .. وعندما كان الشوق يفيض بى وكنت أندفع اليه شابة بيدى على ساقه .. كان الناهر هو مرسى .. الذى يدفعنى بساقه بعيدا عنه .. أما هو فلم يكن يحرك ساكنا كأنه لايشعر بى .

ولم أك أدرى ما بى مما لايعجبه أو مما يسبب كل هذا الاهمال والانكار .. لقد أضحيت نظيفة مفيدة نابحة .. ولست أظننى أقبح كثيرا من غيرى من الكلاب .. بل أعتقد أنى بت على شىء من الجمال بعد هذا العقد الأزرق الذى وضعه مرسى حول عنقى .. والذى ظننت أنى سألفت به نظره .. عندما اندفعت أعرضه عليه .. ولكنه مر بى مر الكرام .. ولم أفز منه بغير الخيبة والخذلان .

لم كل هذا ؟ .. انه سيدى .. وانى أحبه .. ولا أدخر جهدا لاظهار حبى

بشتى الطرق والوسائل ، وانى أفعل من أجله كل ما أستطيع .. أسهر الليل للحراسة .. وأنبح على كل طارق غريب.

ما له اذا لايكاد يحس بى .. ما لقدميه تمران بى فلا تتوقفان ! ما له لايقف ليصفر لى أو ليبتسم فى وجهى كما يفعل سواه .. مما لا أريد منهم بسمة ولا تدليلا .

لم كل هذا الانكار والاحتقار ؟ ألأنى صغيرة ضئيلة هزيلة ؟

أجل .. أجل .. لابد أن يكون هذا هو السبب .. ألم أسمع بأذنى مرسى يقول لزوجته ذات ليلة :

– لست أدرى لم لاتنمو هذه الكلبة .. انها على حالها من يوم أتيت بها .. الظاهر أنها من نوع مقروض لاينمو ..

وأجابت زوجته :

– أجل .. أجل .. لقد خدعت فيها .. خسارة فيها التربية يجب أن نحضر كلبة أخرى تستطيع الحراسة .

وأحسست بضربات قلبى تتلاحق وبغصة فى حلقى .. ولكنها ما لبثت أن زالت عندما قال مرسى :

– لا .. لا .. انها كلبة أمينة طيبة ، وهى تستطيع النباح كأية كلبة أخرى كبيرة .. وماذا نريد منها أكثر من ذلك ؟

وصمتت المرأة وصمت الرجل .. وأحسست أن الخطر الداهم قد زال .. ولكن أثره كان ما زال يجثم على نفسى ويترك فى صدرى مرارة أليمة .

اذا فأنا صغيرة .. مقروضة .. لم أنم .. ولن أنام . هذا هو السبب اذاً فى ازدراء صاحبى لى .

انى لست كبقية الكلاب .. انى فى نظره ضئيلة .. حقيرة .

ونمت ليلتي حزينة بائسة .. فقد أدركت أنى لن أكون فى نظره شيئا .. وأنى من العبث أن أنتظر منه رداً على حبى .. ووفائى .. واخلاصى .

وقلّت زيارته بعد أن استكمل البناء وانتهى العمل .. كان يأتى كل شهر لينقد مرسى أجره .. وليجول خلال الحديقة التى غرسها .. فيرقب الشجر وقد أورق .. والورد وقد ازدهر .. والشجرة المتسلقة قد زحفت فوق الجدار وكسته خضرة يانعة .

كان يقف لينظر الى المقبرة الخالية النظيفة الأنيقة .. وقد بدا عليه شىء من الشرود .. ولكنه شرود بغير رهبة ولا وحشة .. ان وحشة المقابر كائنة فى خرابها وقفرها .. وهو يحب الزهور اليانعة والنبات الأخضر .. ولذلك فقد غلبت بهجة الزهر فى نفسه وحشة القبر .. وبات يحب المكان ويحس به ألفة المضجع .. وراحة المستقر .

ألا ليته يحبنى كما يحبه .. ويألفنى كما يألفه .

ألست حارسته ؟

ألست خادمته الأمينة .. الوفية .. ألست أحبه ؟ .. أليس من الواجب علينا أن نحب من يحبنا ؟ .. أليس هذا حق لهم علينا ؟

ماذا يضيره أن يحبنى ؟ .. أن يبتسم فى وجهى .. أن يهش لى .. لحظة واحدة .. أن يربت رأسى .. مرة واحدة ، عند حضوره كل شهر .. ان هذا يكفينى جدا .. انى لا أطمع فى أكثر منه .

ولكنى كنت آمل عبثا ، فقد استمر منه التجاهل واستمر الانكار .. واستمر منى الشوق واستمر الحنين .. ولم أستطع أن أرد انكاره بانكار مثله .. لقد كان حبى أشد .. وارادتى أضعف .. وكنت لا أكاد ألمحه حتى أعدو اليه وأتمسح فى قدمه .. وأتوسد حذاءه .

ولقد حوّل الشوق نباحى الى ما يشبه النواح والأنين ..

ومر بى الزمن.. وقد وطنت النفس على حبى اليائس المجهول .. الذى

لا يسأل ردا ولا معرفة .. وبات زادى فى الحياة مسحة فى قدميه .. وشمة من حذائه .

لقد وطنت النفس على هذا .. حتى كان يوم أقبل علينا ، ولكنه لم يكن وحده .. كان فى ركب من العربات .. بينها عربة سوداء مغلقة .

وهبط ومعه حشد من الناس يتقدمهم صندوق مغلق أخرجوه من العربة السوداء وعدوت اليه أستقبله وسط الحشد وأتمسح فى قدمه وأشب على ساقه .. ولم يأبه لى كعادته ..

ومرت بى قدماه كما تمر فى كل مرة متجاهلة اياى .. ولكن فى هذه المرة تبينت فى خطواته شيئا غريبا .. كانت بطيئة متثاقلة .. لم يكن بها الاعتداد والثقة والقوة .. كأنه مريض .. أو حزين .. أو به شيء .. وسرت ألاحقه أخوض وسط الأقدام وبين السيقان .

وامتلأ الفناء .. وأخذ الناس يروحون ويجيئون ، وقبعت بين قدميه وقد استقر على مقعد فى ركن ناء ودفن وجهه فى كفه وأخذت أرقبهم يخرجون شيئا من الصندوق ثم يهبطون به السلم المؤدى الى باطن الأرض بعد أن أزالوا عن فتحته الحجارة الطويلة التى سماها مرسى «المجاديل» .. ثم رأيتهم يخرجون وحدهم ويعيدون المجاديل الى مكانها .. ثم رأيت بضعة رجال عجاف أشبه بمرسى يجلسون أمام المقبرة ويهتزون الى الأمام والى الخلف ويقولون كلاما متلاحقا سريعا لم أفهمه ثم يأخذون نقودا وينصرفون .

ورويدا رويدا .. بدأ الناس يغادرون الفناء والعربات تتابع فى الانصراف .

وأخيرا .. خلا المكان من كل من به .. فلم يبق الا هو وحده .. وأنا بالطبع .. اذا كنت أعتبر مخلوقا .. يمكن أن يحس له وجود .

وكان هو ما زال فى جلسته النائية .. مطرقا برأسه فى كفه .. فى صمت عميق .. وقد بدا ظهره منحنيا وكتفاه العريضان المنتصبان وقد تهدلا كأنه يحمل فوقهما حملا ثقيلا .

ونهض من مكانه ورأيت قدميه تنتقلان بنفس الخطوات المتثاقلة البطيئة التى لم أعهدها فيه وسار تجاه المقبرة حتى وصل الى النصب الرخامى فوجدته يخر على ركبتيه راكعا متكئا بذراعيه على النصب دافنا رأسه بين ذراعيه ثم رأيت جسده يهتز .. ولم أك أعرف البكاء قبل هذا ، ولكنى لم أكد أبصر جسده يهتز حتى وجدتنى أبكى .

لقد بكيت لحزنه وبكائه .. وبكيت لأنى لا أستطيع أن أفعل من أجله شيئا .

كل ما فعلته هو أن تسللت بين ساقيه وتوسدت ركبته وشاركته حزنه وبكاءه .

وعندما انتهى من البكاء .. تلفت فى المكان الخالى الساكن فلم يجد سواى بين ركبتيه .

ومد يده الى .. وتوقعت أن يطبق على عنقى ويقذف بى بعيدا .. وأقسم أنى ما كنت لأغضب منه لو فعل .. فقد جرأنى الحزن على فعل ما لايجب أن أفعل .

ولكن يده لم تقبض على عنقى .. بل امتدت لتفعل بى أقصى ما كنت أتوق اليه .. لتربت جسدى .. ولتتحسس ظهرى .. بمنتهى الرفق والحنو .

أجل .. لأول مرة .. أحس بى .

وشعرت أنى سعيدة .. سعادة لم يستطع حزنه ولا حزنى عليه أن يبدد شيئا منها .. لقد بت أحس أنى أعنى لديه شيئا .. وأنى قد استطعت أن أخفف بعض حزنه وأذهب بعض لوعته .

وعندما غادر المكان بخطواته المتثاقلة الحزينة .. كنت أقف لأودعه .. وبودى أن لا أودعه أبدا .

وبدأ تردده بعد ذلك على المقبرة .. ولم يكن تردده لزيارة المكان الخالى أو لرؤية الزهور والأشجار .. بل كان لزيارتنا نحن .. أعنى أنا والعزيز الآخر الذى خلفه معى .. والذى بت أسهر على حراسته .

وعندما أقول .. أنا والعزيز الآخر .. لا أقولها من باب الغرور أو من باب أوهام العشاق .. لقد بت أحس أنه يحضر الى فعلا .. فقد كنت أول ما يرى .. وكان ينحنى ليحملنى بين يديه ويدخل بى .. وكنا نجلس سويا أمام النصب فى صمت نتشارك الأحزان ونتبادل العزاء .

ومرت الأيام وعطفه علي يزداد .. ومظاهر حبه توضح : لقد كنت ضئيلة صغيرة .. ولكن يبدو لى أنى كنت أثبت له على ضآلتى من الكثيرين الذين كانوا يحيطون به ممن قد يكونون أكبر حجما ولكن أقل وفاء واخلاصا وحبا .

ووددت فى كل زيارة له الا أفارقه وأن أقفز فى العربة فأتبعه أينما ذهب .. ولكنى خشيت أن أضيع فى الدنيا الصاخبة حيث يشاركنى حبه الكثيرون .. وفضلت أن أبقى فى دنياى الخالية .. حيث لايشاركنى حبه أحد .. وحيث ألقاه وحده وقد انفض الكل من حوله .. وانغمروا فى حياتهم الصاخبة .

ومر الزمن .. وعادت المجاديل تفتح وتغلق .. ليهبط الى باطن الأرض عزيز جديد .. وفى كل مرة يمتلىء الفناء بحشد الناس .. ثم ينفض الحشد .. ولا يبقى فى المكان الموحش غيره .. وغيرى .. أواسيه وأكفكف دمعه وأمسح رأسى الصغير بين قدميه ، وأتلقى ربته الحانى وتحسيسه العطوف .

وهكذا تعودت اقبال المواكب وانفضاضها .. وتعودت أن أستقبله وسطها وقد ازدادت خطاه تثاقلا .. وازداد ظهره انحناء وكتفاه تهدلا .

وفى ذات يوم أقبل أحدها .. أعنى تلك المواكب التى تتقدمها العربة السوداء .. ووقفت العربات أمام الباب .. وعدوت اليه أتلمسه بين الحشد المقبل على الفناء .

وكان يوما من أيام الشتاء .. لم تشرق شمسه .. بل أخذت تتسلل فى مدارها مستترة وراء السحب الداكنة المعتمة .. وكانت الريح تهب فى لطمات عنيفة متواترة . ورائحة الجو تنذر بالدموع الهاطلة .

وكان يوما يحس منه الحزن .. وشمس متشحة بالسواد .. وريح نائحة .. وسماء توشك على البكاء .

وتجاوزتنى سيقان الحشد وأنا أشق طريقى بينها .. متجهة اليه وأخذت تمر بى الساق تلو الساق دون أن أجد بغيتى .

واتجهت يمنة ويسرة .. أبحث .. وأبحث .. ولم يكن أسهل علىّ من الوصول اليه .. ولكن فى هذه المرة لم أجده بسهولة .

ونبحت .. عله يسمعنى .. فينادى علىّ .. ولكن أحدا لم يسأل عنى .

وعجبت لتأخره .. انى لم أفتقده أبدا .. انه لم يتخلف مرة واحدة عن هذه المواكب .. وفجأة حانت منى التفاتة الى الصندوق المرفوع على الأكتاف وأحسست بقشعريرة فى جسدى .

أيمكن أن يصح هذا ؟ أيمكن أن يكون حقا قد تخلف عن الموكب ؟

انه لم يتخلف عن الحضور .. ولكنه تخلف فقط عن السير .. لا .. لا .. لقد أتى محمولا .

أجل .. انه هو .. أنا لا أخطئه أبدا .. انى أعرفه وسط الآلاف .. وخلف مئات الستر والجدران .. أعرف رائحته .. وأميز عبيره .

ونبحت نباحا شديدا .. انى أكره أن يدخلوا به محمولا فهم سيعودون وحدهم .. وسيبقى هو .

لا .. لا .. سأدخل معه .

وشققت طريقى متسللة بين الأقدام الى أسفل .. وهناك وجدتهم يرقدونه فى باطن الأرض ويوسدونه الثرى .. وخيل الى أنى أسمع صوته يهتف ضاحكا ساخرا :

- لابد لنا من عودة .

وصعد الجمع .. وانزويت أنا عن الأنظار فى ركن من المكان المظلم .

اذاً تركوه هم .. فقد سبق أن تركوه فيما مضى .. أما أنا فسأبقى معه .. دائما .. دائما .

وفى تلك الليلة بحث مرسى عن كلبته عبثا .. ثم تعود أن يسمع صوتها بعد ذلك فى كل ليلة نائحة عاوية .. أو هكذا خيل اليه .

وعندما حضر الموكب فى مرة تالية وفتحت المجاديل وهبطوا بزائر جديد .. لمح القوم هيكلا عظيما صغيرا لم يدروا لمن .. ولا من أين أتى .

